

وداعاً أيتُّها الدُّموعُ

قصصٌ قصيرة

تَأليفُ العَلاَّمَةِ
أحمَدِ القطْعَانِي

الَنَاشِرُ
دَارُ بُشْرَى وكلْثوم

الطَّبْعَةُ الأولَى 1439هـ، 2018م

وداعاً أيتها الدموعُ

قصصٌ قصيرة

تأليفُ العَلاّمَةِ

أحمَدِ القطْعَانِي

الطَّبْعَةُ الأُولى 1439هـ،2018م

النَّاشِرُ

دَارُ بُشْرَى وكَلْثُوم

لوحة الغلاف لفنان مدينة درنه التشكيلي الكبير الأستاذ جمعه طاهر الشاعري

ثُعْطِي الدُنيا لِلأحياءِ فِيها وعُوداً كثيرَةً وَلكنّهَا لا تفِي لِبَعضِهم إلاّ بوَعدٍ واحِدٍ فقطْ هُو العَذابُ،،، فيا ويلَهُم.

أحمد سالم كريم القطعاني.

وداعا أيتــها الدمــــــوع

أنت أيها الغافل الذي ترفل في السعادة والهناء وتمد يدك فلا ترجع اليك إلا بما تشاء حتى إذا ما اعترضتك مرة حصاة في طريق حياتك المزهرة الغناء ابتئست وصحت معترضا على رب السماء متذمرا نادبا حظك، دعني اعرفــك بفتاة كل حياتها خريف وعناء رغــم ان اســـمها (ربيعة).

===========

أخيرا قررت ربيعة قطع صلتها بالمجتمع، هذا المجتمع الذي تقاذفها بأقدامه يمنة ويسرة ككرة مهترئة ثم رفعها عن الارض عاليا لا ليحترمها ويقدرها، بل إلى فمه ليمضغها بأضراسه الصلبة القاسية ويمتص على مهل ما بقي بها من حلاوة كأنها بقايا علكة رخيصة ثم ليبصقها في التراب !!

كانت يوما في ريعان الصبا العذب، لها قوام ممشوق وضفيرتان جميلتان تتدليان على ظهرها ووجه خمري لطيف يحمل مخائل المشاغبة الطفولية المحببة وأنف مدبب صغير، تحمل حقيبتها في يدها إذ لم تكن موضة الحقائب الجميلة المزركشة المحمولة على الكتف أو الظهر قد ظهرت بعد، وتمشي مع صديقاتها يثرثرن عن كل شيء ويقسمن بأغلظ الايمان ويختلفن ويتفقن حول كل شيء ولاشيء وأنا تلميذ في الصفوف الابتدائية الأولى أسير معهن وغالبا بينهن إلى مدرستنا {المدرسة النموذجية المشتركة بحي السكابلي} ببنغازي، وما كُنَّ ينتبهن لي أصلا والغالب إنني ثقل أوجبته عليهن حقوق الجوار والعادة وخوفي من المشي وحيدا، فتقبلنني كواجب ثقيل على مضض، ثم أصبحت لهن شيئا عاديا ضمن ديكور المنظر الصباحي المعتاد، ولهذا كنت أعرف عنهنَّ كُلَّ شيء من غير أن يدرين.

فهذه تقسم برأس أبيها الغالي أن والدها الموظف المهم اشترى لها هذا الفستان من طرابلس، بينما الحقيقة أن أختها هي التي اشترته من سوق الرويسات ببنغازي لنفسها ولبسته مرارا حتى ضاق عليها فأعطتها اياه !!

وتلك المحظوظة وجدت قطعة ذهبية في قالب صابون (كامي) فباعتها بمبلغ كبير جدا من وراء أهلها، وهي في الحقيقة لا تعرف عن صابون كامي إلا اسمه !!

وتلك لا ترتدي إلا الثياب التي يبعث بها عمها لها من مصر، مع أن عمها العجوز القاطن في كوخ من صفيح في حي الكيش لم ير مصر في حياته .. وتلك .. وتلك !!

وما كانت ربيعة تختلف عنهن في شيء إلا أنها أكثر عناية بي وأكثر نهراً لي وزجرا إذا تأخرت عنهن في المشي أو توقفت في الطريق أو اعترضني مشاكس يريد أن يمارس هواية الملاكمة على حسابي، وكبرت ربيعة وتوقفت عن الدراسة ككثيرات من بنات ذلك الجيل، وبقيتْ في المنزل تنتظر ابن الحلال الذي يحمل مواصفات طالما سمعتُها تحددها في أحاديث الصباح تلك بدقة متناهية فهو جميل الشكل له شعر أسود طويل ناعم كالحرير وعنده سيارة فيات زرقاء كلون السماء، ويرتدي ملابس أنيقة ويمتلك منزلا جميلا، و..و..و، ولكن تقلصت كل هذه الأماني للأسف لتتزوج أول طارق لباب دارهم الذي أخذها إلى بيته لمدة أشهر معدودة ثم أرجعها إلى بيت أبيها بلقب (مطلقة) الذي صبغ كل حياتها بالسواد إلى الساعة التي أغمضت فيها عينيها وحيدة إلى الأبد.

ففي تلك الأيام كانت المطلقة مثل غراب مصاب بانفلونزا الطيور لا صديقات لها ولا تحادثها النساء المتزوجات إلا مضطرات، أما الشابات غير المتزوجات فكانت علاقتها بهن أكثر حرمة من لحم الخنزير على المُسلم، فلا يتبقى لها من جليس إلا العجائز وكبيرات السن فتشيخ مثلهن وهي في زهرة الشباب كزهرة ربيعية نبتت خطأً في عز الخريف.

ربيعة كيف حالك؟.. قلت لها ذات يوم وأنا راجع من المدرسة وقد أصبحت تلميذا في المرحلة الإعدادية وقد رأيتها تكنس أمام منزلها، أو رأيت ما تبقى منها، كانت حافية القدمين مهملة الثياب تخفي شعرها المشتت بخمار بال وشعيرات بهن أثار حناء تبدو من تحته على صدغيها ونظرت لي بعينين كليلتين بائستين هما قطعا غير تلك العنين الضاحكتين المشاغبتين اللتين كنت أعرفهما لتبتسم لي وترد التحية، وألقيت أنا حقيبتي المدرسية على الأرض وجلست بقربها أستمع إلى ثرثرتها التي طالما تعودت عليها أخبرتني عن مقاساتها وآلامها ودموعها التي تذرفها كل يوم وليلة وعن صديقاتها الخائنات اللاتي هجرنها بلا ذنب اقترفته في حقهن أو حق أحد، وذاك التعيس الذي ألقى بها بين أيدي أمه الظالمة فسامتها هي وبناتها العذاب ألوانا ثم طلقها .. وأمها التي تضيق عليها طوق الخناق ولا تسمح لها بأي حديث أو زيارة أو خروج من المنزل لأي كان ووالدها الذي يوبخها دائما ولا تعرف لذلك سببا، وأخوتها وإهاناتهم المتكررة لها ومشاكلها مع زوجة أخيها الأكبر التي تشاركهم العيش في المنزل والتي تكره ربيعة كره العمى، لقد حدثتني عن بؤسها وشقائها وكل شيء ثم نظرت إلي بأسف وقالت موبخة: أما زالت بك تلك العادة تنظر دائما إلى لاشيء وتسرح؟ هل أنت فاقد الوعي على الدوام هكذا؟ أماذا يصيبك؟ متى تنتبه لما حولك؟.

ثم أحضرت لي خبزا وقالت: كل فلا شك أن التلاميذ أخذوا افطارك من حقيبتك كالعادة

وأنت تنظر لا تحرك ساكنا؟ لماذا لا تضربهم؟ لماذا لا تدافع عن نفسك؟ لماذا أنت جبان هكذا؟.
وأكملت موشحها الذي تعودت القاءه على مسامعي ثم ودعتني ودخلت دارها تجرر خيبتها في حياة لم تر فيها إلا النكد والشقاء، وبقيتُ أنا أمام المنزل متألما مما أصابها من بؤس حزينا من تغير صورتها إلى هذه الدرجة، لقد كان يخيل إليَّ وهي تحادثني أنها مثل طاووس مزركش بديع ألقي به ظلما في بركة وحل سوداء ليقضي بها بقبة أيامه، ودارت الحياة دورتها وكنت اراها بين الفينة والأخرى فنتحادث وتلقي على مسامعي نخبة من التقريعات والتوبيخات التي صارت تقل شيئا فشيئا مع تقدمي وتقدمها في العمر حتى توقفت، ثم لم أعد أراها بعد انتقالي للسكن في مدينة درنة وانقطعت عني أخبارها إلا ما يحدثني به عنها بعض الأصدقاء ممن يعيش في بنغازي.
ثم تغيرت عادات المجتمع شيئا فشيئا وقالوا لي انها اصبحت تخرج من المنزل أحيانا وتحاول أن تدرك آخر محطات قطار العمر السريع فهي تلبس ثيابا جميلة وتخرج إلى حاجتها وفي القلب امنيات وأحلام، ولكنني لا أدري لماذا كنت كلما سمعت عنها هذا الكلام انقبض قلبي من الحزن وتمثلت لي في حالتها تلك كأنها طائر مذبوح يتخبط على الأرض، وعلمت أنها هي الأخرى ما نسيتني قط، إذ كانت رغم كل ما هي فيه تتتبع أخباري وتسال عني، أعتقد انها كانت تفعل ذلك بحنين إلى ماض جميل كانت هي محوره يوما ترنو إليه سعيدة حالمة متذكرة أسعد أيام حياتها حيث الثرثرة وخلو البال والمرح والطفل الذي كتب عليها ان تتجشم عناء الاهتمام به وجرجرته وراءها ومقاسمته افطارها اليومي متذمرة من خيبته وذهوله الدائم عما حوله وانتظرت المسكينة ابن الحلال الذي خذلها حيث لم يات قط.

نحن في زمن أختلط فيه الحابل بالنابل وصار فيه الدينار هو معيار تقييم الناس.
رايتها مرة مصادفة فاضطررت لأن اشيح ببصري بعيدا عنها كي لا تراني حيث كانت تعصر بقايا ما أودعه الله فيها من أسرار الأنوثة وميراث جدتها حواء كبقايا برتقالة جافة ناشفة علَّ أحد الراغبين يراها فتلقى في نفسه قبولا ويجبر ما انكسر من حالها وتعيد معه تجربة زواج مأمولة ثانية فما كنت أريد ان اراها وهي في هذا الحال الضعيف المستجدي كأنها متسولة على قارعة الطريق، ولا أن تراني وهي التي تعودت أن تكون أمامي قوية قادرة ولكن ذلك الغائب لم يأت قط رغم إنني سمعت أخيرا أنها أنفقت الكثير والكثير على أولئك الذين امتهنوا تحويل مأسي ربيعة ومثيلاتها إلى نقود وسيارات ومساكن وثياب إنهم

مجموعة من الحذاق - هداهم الله – علموا أن في آيات القرآن الكريم ونصوص الأدعية ما يفك رصيدة أو يبطل سحرا أو يحل معقودا فاتخذوها مطية لنيل دنياهم وما علم هؤلاء أن أسرار الله إنما يهبها للطيبين الطاهرين الذين تغمر قلوبهم الآلام المبرحة ولواعج الأحزان إذا ما جاءهم من تقطعت به الحبال وأوهنت قلبه وبدنه ركلات الزمان فتفيض تلك الآلام والأحزان على أيديهم بركة وشفاء بإذن الله وقضاء حاجات، ولكننا في زمان اختلط فيه الحابل بالنابل وصار الدينار هو معيار وهدف كل شيء حتى مأسي الناس ومصائبهم أضحت سوبرماركت يدر الأموال ويرفع قيمة الأرصدة في المصارف.

ليتكِ اخبرتني بذلك في حينه أيتها العزيزة الغائبة لكنتُ قلتُ لك أن الحلم الذي راودك لن يتحقق فلا تجري وراء السراب الخادع، ارضي بنصيبك وما قسم لك الله وعيشي حياتك كما هي.

ولكن أنى لي أن أقول، وأنى لكِ أن تسمعي، فلكل منا من الخلق طريق كتب عليه أن يسير فيه إلى النهاية، وكأس أقدار مترعة كتب عليه أن يشربها حتى الثمالة.

لذا لم تظفر ربيعة يوما بحل لمشكلتها، وصارت جزيرة الأحلام تبتعد عن ناظريها يوما بعد يوم حتى توارت بالأفق، وفي لحظة ما والجميع غير منتبه ابتدأت بعض الأعراض الغريبة تظهر في حياة تلك المنكوبة صارت تكلم نفسها ثم صارت تسمع كلاما من شخص أو أشخاص عدة يحدثونها في أذنها من غير أن تراهم وهي تكلمهم، أو بالأحرى تكلم نفسها وتشير بأيديها منفعلة كأنها في حوار ساخن مع آخرين، ولم تجد من يهتم بها أو يأخذ بيدها إلى عيادة الطبيب المكلفة مالا وجهدا ووقتا في زمن لم يعد يهتم فيه أحد بأحد، وساءت حالتها كثيرا إلى أن اختل عقلها وتحولت تلك الزهرة الذابلة التي كانت يوما فتاة ناعمة ظريفة لاهية إلى حطام انسان يخافها الأطفال وتنأى عنها النساء ويتحاشاها الجميع.

فهي تكلم نفسها بصوت عال وتزعق لأشخاص لا يراهم أحد، وتسب هذا وتلعن ذاك وتحولت ثيابها إلى أسمال بالية ووجهها إلى تجاعيد متراكبه ونظرات خاوية وتساقطت أسنانها ووهن جسدها وانهارت صحتها وصارت عبئا ثقيلا على ما تبقى من أفراد أسرتها فألقوا بها في مستشفى الأمراض النفسية ونسوها.

ثم وفي أحد الأيام هكذا وبكل بساطة لفظت آخر أنفاسها وحيدة في منزل أسرتها القديم بحي السكابلي كأنها لم تكن يوما تلك الصبية الثرثارة المملوءة حياة وضجيجا التي تتكلم وتأكل وتضحك وتشير بيدها هازئة وتهز رأسها ساخرة في وقت واحد، ويا للأيام وما تفعل.

وداعا أيتها الدموع فقد كنتِ بئس الرفيق لربيعة، لطالما بللتِ وسادتها واقتحمتِ عليها وحدتها وخنقتِ عبرتها وأظلمتِ عيشتها !!
لطالما كنتِ أنتِ السيدة المستبدة الآمرة وهي الأسيرة الذليلة الطائعة الخانعة، ولكنها هاهي تنسحب من الميدان أخيرا وتترك لك كل الدنيا وما فيها فوداعا أبديا غير مأسوف عليه.
نعم غادرت ربيعة الدنيا ولم يهتم بالأمر أحد لقد ارتاحت وأراحت كما ردد الجميع، وقذفوا بها إلى بطن الارض ومضى كل في حال سبيله .. فليرحمك الله أيتها المؤودة المدسوسة في التراب حية.
لقد ذرفتُ دموعي عليك حزناً وفي جلسة تأبينية متواضعة أخبرتُ بعض الأحباب عنك وذكرتكِ لهم، وذكرت بعضا من طرفك وذكرياتنا معا، وبكيتك أمامهم وها أنا أداء لحق صداقتنا تلك أكتب عنك، علَّ قاري كريم يتألم لمأساتك فيدعو لك بظهر الغيب دعوة تنفعك حيثما أنت، ويدعو لي كذلك بالمغفرة والرحمة.

وحيدة في حقول الشوك

تعطي الدنيا للأحياء فيها وعودا كثيرة ولكنها لا تفي لبعضهم إلا بوعد واحد فقط هو العذاب،،، فيا ويلهم.

==========

تحاول أمال أن تعصر فكرها لتتذكر ملامح أمها الحقيقية بعد أن ملّت من التحديق في الصورة الفوتوغرافية الوحيدة لها والتي تظهر فيها امرأة شابة تنظر اليها بهدوء واحتشام ولكنها لا تكاد تتذكرها إذ أنها رجعت بعد وفاة والدها إلى أهلها بالقاهرة وتركتها في عامها الثاني وديعة عند أهلها أمانة غالية فاحتضنها جدها وجدتها لتنعم في حضنيهما بالسعادة الوحيدة التي حظيت بها طوال عمرها ولكنهما للأسف غادراها سريعا هما أيضا إلى رحمة الله وتركاها لأعمامها وعماتها الذين فرحوا بها قليلا أول الأمر ثم ملوها وتقاذفوها بينهم كأنها كرة في أرجل طفل مشاكس عاما بعد عام، فعمتُها هذه ترفض احتضانها لأن أهل زوجها الذين تعيش معهم لا يريدونها في دارهم وعمها الآخر يخاف قبولها لأن زوجته كرهتها منذ أن رأتها لأول مرة وعمها الآخر فقير يستطيع بالكاد الإنفاق على أسرته حتى استقرت أخيرا في منزل عمها الأكبر في حي الصابري وسط أسرته التي تزيد عن العشرة أفراد شغالة بلا مقابل.

ولأنها لم تجد وقتا لتفتح كتابا في المنزل أو تراجع درسا وتنقصها الكراسات في أحيان كثيرة والشنطة والثياب اللائقة ولإنشغال ولي الأمر عنها فقد أصبحت هدفا دائما لنقمة المعلمة وعصاها الصلبة على كفيها الصغيرتين توجعانها ضربا بين الفينة والأخرى وتوبخها بأقسى الألفاظ أمام زميلاتها الصغيرات فقد تعثرت في دراستها ثم تركتها إلى غير رجعة وهي في الصف الرابع للتفرغ للطبخ والكنس دواما كاملا ولتجلس على الأرض كل يوم بعد وجبة الغذاء لساعتين متصلتين على الأقل لتغسل الأواني ثم لترعى الأطفال إن خرجت أمهم بعد العصر لنزهة أو زيارة جارة وتعد وجبة العشاء وهي فرحة لأنها ستتفرغ لمشاهدة التلفزيون هذا الأنيس الذي جعله الله سلوى للمتألمين والمُثقلين بالأحزان ينسون على شاشته الفضية همومهم لوقت يطول أو يقصر فتجلس مع الأسرة وسط الأطفال في فرح وترقب ولكن ينهار جسمها الصغير المنهك قبل أن تكتمل فرحتها فلا تنتبه لنفسها إلا وهي توقظ أولاد عمها في الصباح ليستعدوا للمدرسة وتهيء لهم افطارهم وسندوتشاتهم وتقفل خلفهم الباب لتبدأ حلقة أخرى في مسلسل الآمها الأبدى.

والغريب أنها كانت تفعل كل هذا بلا تذمر أو استياء بعد أن أفهموها أن هذا هو الوضع الطبيعي الذي لا يمكن أن يوجد غيره وتراضى ذووها من حضر ومن غاب عنها منهم على قبول هذا الحال الذي ليس بإمكانهم توفير بديل أفضل له، وإذا ما رقّ فؤاد أحدهم لها وطالبهم بالشفقة عليها قيل له: خذها عندك وإلا اسكت، فيسكت.

القناعة بالشقاء أشد ألما من الشقاء نفسه.

كانت سعيدة سعادة الغافلين فرحة فرحة المخدوعين تقتطف في أثناء فراغها من أعمالها المتزايدة بعض اللهو مع بنات عمها أو تغمر السعادة الحقيقية قلبها الصغير وهي تشاهد الرسوم المتحركة في التلفزيون الذي ما سئمت صحبته قط ولا تغفل عن اختلاس الحديث مع فتيات الشارع وبالمقابل واظب عمها على سحب مرتب والدها الضماني المخصص لإبنته الوحيدة بحكم القانون باسمها وإنفاقه على شؤونه وهي تعلم ذلك ولكن لم يبلغ إدراكها إلى أن تعلم بحقها فيه، ومع هذا فقد كانت تقف أحيانا لتقارن حالها بمن هنّ في سنها من بنات أعمامها أو جاراتها إنها تحسدهن على نضرة وجوههن والدم يكاد ينفر من خدودهن وأجسادهن الناعمة مقارنة بوجهها الأصفر الشاحب وعينيها الحمراوين وجسمها المتيبس وكفيها اللتين أكلتهما الليفة والصابون والبوطاس وتطيل النظر بإعجاب وخجل إلى ثيابهن الأنيقة المزركشة وشعرهن الصقيل المدهون النظيف بأنواع الشامبوات الممشوط بعناية تقارنه بشعرها المجموع تحت غطاء بال تظهر من تحته خصلات شعر متشابكة إذ لا تتجاوز مرات استحمامها وغسلها لرأسها مرتين أو ثلاث في الشهر ولا لوم على زوجة عمها أو غيرها في هذا والحق يقال، كل ما في الأمر أن لا أحد يحرص عليها لتفعل كما أنها لا تجد في أحيان أخرى الوقت لذلك أو يكون قد نال منها التعب غايته فتفضل الراحة على مجهود الاستحمام أما الثياب فقد كانوا يشترونها لها جديدة في غلافاتها البلاستيكية البراقة خصوصا في الأعياد ولكنها لا تعرف لماذا هي ليست جميلة وأنيقة مثل تلك التي يشترونها لبناتهم ولماذا أيضا لا يستمعون إلى ملاحظاتها حول اتساعها أو ضيقها فيبدولونها كما يفعلون مع غيرها إنهم يبتسمون لها ويقولن هاهي ثيابك وكل عام وأنت بخير فتفرح كأي طفل وتتوسد ثوبها لتنام عليه والرضا يغمر فؤادها الغافل لتضعها في حقيبتها في الصباح إذ لم يكن عندها دولاب أو درج في هذا البيت، وعدا ما في هذه الحقيبة من بقايا ثياب ودمى قديمة ولعب رخيصة فإنها لم تكن تمتلك شيئا.

ترى هل كانت تلاحظ شخصية عمها الضعيفة جدا أمام زوجته، وهل وصلت إلى مرحلة

من الإدراك المبكر لتُحمله أو تُحملها مسؤولية ما نزل بها لا أحد يعلم ولا أحد يعرف ما الذي كان يدور بخلدها وهي تحد النظر أحيانا طويلا اليهم حتى يتضايقون منها فينهرونها فتطاطي رأسها على عجل إذ أنها الآن على أبواب مرحلة جديدة من عمرها وابتدأت تظهر في جسدها تغيرات تدل على أن الطفلة أصبحت صبية مراهقة وتحتاج مزيد رعاية وعناية وإنفاق على نوعية معينة من الثياب ولوازم النساء اليومية والشهرية صحيح أنها لا تزال منهكة الجسم عليلة البدن باهتة ملامح الوجه ميالة إلى العدوانية والشجار مع الفتيات الأخريات لأتفه الأسباب ربما تنفيسا عن مشاعر نفسية تسكن صدرها، ولكنها أصبحت فتاة على غير رغبة أو توقع من أحد.

وهي لم تقلع عن مشاهدة الرسوم المتحركة وإنما أضافت اليها متابعة المسلسلات اليومية والتأثر بأحداثها العاطفية والاجتماعية وكثيرا ما تخيلت نفسها هي بطلة المسلسل ومحور أحداثه، كما صارت تهتم أكثر بمنظرها رغم خواء حقيبة ملابسها وأصبحت علبة المزيل والمشط والشامبو وقالب الصابون ملفوفة مع بعضها في شكارة نايلو في وسط حقيبتها وتراودها خيالات وأحلام عجيبة ما اعتادتها من قبل، ومضت وتيرة حياتها على هذا المنوال والأيام تتقدم بها رتيبة ثقيلة.

وبالرغم من تفانيها في عملها كشغالة مجانية إلا أنهم منوا عليها وسط تذمر زوجة عمها ورفضها بأن أعطوها لأول طارق طلب يدها فكادت تطير من الفرح وجهزوها حسب ما يسر الحال وزُفت بمظاهر احتفالية فقيرة متواضعة يغلب عليها التوفير الاقتصاد ما كانت تحلم بمثلها على اقتصادها وخوائها إلى دار زوجها وهي في قمة السعادة فهاهي في طريقها لتكون زوجة محترمة لرجل محترم صاحبة منزل خاص بها وسيكون لها أولاد وفساتين لقد كاد قلبها ينفجر في صدرها حبا وإعزازا لهذا الرجل الذي نقلها في ساعة واحدة من حضيض الفقر والمعاناة إلى قمة السعادة والهناء وهي بدورها لن تبخل عليه بشيء وستخدمه بعينيها قبل كفيها ايفاء لحقه وستحبه وتحبه وتحبه إلى يوم القيامة وستطبق كل ما شاهدته في الأفلام والمسلسلات على واقعها الجديد معه وسترتدي أجمل الثياب وستسكب سيلا من العواطف والمشاعر لحبيب القلب حتى يرتوي.

من جهته هو فقد كان طيبا لا يُعرف عنه أنه شرب خمرا أو تعاطى مخدرا أو مارس اجراما وباستثناء تجربة زواج فاشلة من ابنة عمه مضى عليها قرابة ثماني سنين انتهت بعد عدة أشهر فلا يعرف عنه انه أقام علاقات نسائية.

كانت دارها في القرية التي يعيش فيها زوجها وأهله وقبيلته عبارة عن منزل ريفي بسيط

جدا يتكون من دارين صغيرتين مسقوفتين وحمام ضيق ومطبخ خارجي صغير وبعض الأثاث ولكنه كان على بساطته أكبر من عمارة السفطيه في عينيها إنه جنة الله في أرضه بلا شك ولا ريب، وتزاحمت على رأسها الأحلام الوردية والخيالات الحريرية عن العز والراحة والأمن والطمأنينة في أرجاء هذا القصر المنيف وظل هذا الزوج الذي لا يقل جمالا عن هاني شاكر وظرفا عن غوار الطوشي وأناقة عن عبد الحليم حافظ وقوة عن فريد شوقي وباقي أبطال التلفزيون كل بصفته المميزة.

بحكم سُكنى القرية والقرابة كان اصدقاؤه وأقرباؤه يزورونه ويزورهم باستمرار وتُعد هي لهم الشاي وأحيانا الطعام ويرونها وتراهم وترحب بهم ولطيبتها وقلة تجربتها وانعدام الناصح وغياب من يهتم لأمرها فإنها لم تلحظ نظرات وتصرفات بعض هؤلاء الزائرين ومبالغتهم في الامساك بكفها أثناء مصافحتها والتحدث معها في حضور زوجها وفي غيابه ورغم ما رددته على مسامعها بعض جاراتها عن زوجها من أنه ضعيف الشخصية يخلو من غيرة الرجال على محارمهم وهو سبب طلاق زوجته الأولى منه إلا أنها لم تشأ أن تعكر صفوها بهذه الأقوال فأين هي اليوم مما كانت عليه بالأمس.

بعض أصناف الرجال كالكلاب لا تعافُ شيئا.

ورغم بخل الطبيعة عليها بمظاهر الدلال والجمال استمرت التجاوزات فبعض أصناف الرجال مثل الكلاب لا تعاف شيئا مادام قابلا للمضغ لذا فالذي كان يمسك الكف صار يمسك بالذراع وألفاظ الغزل صارت مكشوفة وغناوي العلم وشعر صوب خليل يصبونه في أذنيها كل صباح ومساء فاشتكت لزوجها الذي قلل من أهمية الموضوع وقال لها أن هذه عادتهم ولا يقصدون شيئا ولكنهم تمادوا وتمادوا وتطاولت ألأيدي على ما أبقته الأيام من جسدها الشاب تتحسسه وتجوس فيه، وهي تصيح في وجه هذا وتسب هؤلاء وتدفع عنها أولئك وهم يضحكون ويتمادون واشتكت منهم ومنه للعقلاء وكبار العائلة ولم يتحسن الوضع والزوج الذي كانت تراه أسدا هصورا في قوته وغزالا نافرا في جماله ونموذجا مثاليا في طباعه وسجاياه صار على قلبها أثقل من طن من الحديد الصديء فكرهته وكرهت رؤيته ومقتت كلامه وابتسامته الكريهة الباهتة والنظر إليه، وما درت يوما إلا وهي تجمع أشياءها وتغادر تلك القرية إلى دار عمها في بنغازي.

واشتكت لعمها وزوجته فوبخاها بشدة ونهراها وأعاداها مجبرة إلى دار زوجها لتكون أضحوكة نساء القرية فلا يوجد أبدا في الدنيا من هو أقسى على المرأة من المرأة، وتمادى

أولئك في غيهم وتعود الجيران على صياحها لهم وسبابها وضربها بالحجارة وكل ما يصل إلى يدها وطفح بها الكيل فشجت رأس زوجها شخصيا ذات مرة بحجر صلب أدخله المستشفى.

وإذا ما ساقتك الظروف يوما إلى تلك القرية فسترى عجوزا فوق السبعين رغم أنها لم تتجاوز الأربعين عاما من عمرها إلا بقليل حافية مشققة القدمين بالية الثياب شاحبة الوجه حمراء العينين نحيفة مقوسة الظهر مهشمة الأسنان شعثاء الشعر بتر مشرط الطبيب بعض أصابع قدمها اليسرى فخلف لها مشية عرجاء، إذا ما صافحتها أحسست كأنك تمسك بكفك جذع حطب يابس جل نظرها إلى الأرض تكلمك بهدوء شديد وصوت خافت وبابتسامة واهنة وتحرص على تناول حقن الأنسولين و حبوب وأدوية عديدة بانتظام من كيس لا يفارقها.

الشيء الغريب أنك إذا نظرت إلى عيني أمال وجدتها لا تنظر إليك أو إلى أحد ممن هم أمامها وستفاجأ بأن نظراتها خاوية فارغة ،،،

ترى،،، هل ترى أمامها تلك الساعة أهلها أم عمها أم زوجته أم زوجها أم نحن كلنا لأننا المجتمع الذي خذلها وما وقف أحد منا معها في محنتها التي استغرقت عمرها بأكمله وتركتها حطاما لا حياة فيه، الله وحده يعلم.

إنهم يقتلون الآمال

ويل لأمة اخشوشنت أكف أطفالها، وعرقت من كد العمل جباه أولادها.
ويل لأمة جعلت من الأطفال مطية لتحصيل الأموال واستبدلت نقاء مرح الصغار ولعبهم بكدر اثقالهم بالسعي وشقائهم.

===========

سوق الجمعة في مدينة درنه فضاء واسع بلا أبنية أو محلات أو واجهات زجاجية ينعقد يوما واحداً في الأسبوع، تُعرض به على الأرض البضائع الغزيرة مكدسة متنوعة من خضروات ومواد غذائية وألبسة ولوازم الأسرة وحاجياتها بأسعار تدخل في استطاعة رب الأسرة ومستوى دخله.
مئات من الناس تبيع وتشتري وأصدقاء يلتقون فيتصافحون ويتبادلون أطراف الحديث في وسط السوق مما يزيد في الزحام، خصوصا في مدينة صغيرة يعرف كلُ أهلها تقريبا كلَ أهلها.
أطفال مع ذويهم يتنزهون في هذه المعمعة، وبين الفينة والأخرى يوقف أحدهم أباه ليشير إلى علبة شوكولاتا أغرته أو قميص أعجبه أو لعبة سيطرت على تفكيره ، ولا يجد والده - جزاه الله خيرا - من سبيل لفض الاشتباك بعد استنفاد وسائل الإقناع وإفلاس أدوات الحوار معه عن المرتب وكثرة طلبات المنزل إلا الرضوخ لأمره.

طفلك أمانة بين يديك ستحاسب عليها.
كنت في وسط هذه الجلبة أشتري أغراض المنزل وإذ بكف تطرق ظهري فالتفتُ ظانا أنه أحد الأحباب أو الأصدقاء، لكنني وجدته طفلا لا يتجاوز الأربعة عشرة عاما من عمره قصير القامة بدين الجسم أكثر مما هو معتاد ممن هم في عمره، يرتدي جلابية أطول منه كانت في يوم من الأيام بيضاء، اهترأ أسفلها من كثرة ما داسه بقدميه وجرجره على أرض السوق، والعرق يسيل على وجهه غزيرا مختلطا بدموع على وجه أسودَّ من لفح الشمس، وأثار الكد الجافة على محياه ظاهرة، وقال والعبرة تخنقه وتخض جسمه المتعب المكدود:
سيدي الشيخ أحمد كفهم عني.
قلت، وقد ارتعت مما عليه المسكين: من هم؟.
فشرع يشرح لي مشكلته وغصة البكاء تقطع كلامه والدماء تسيل من فمه وبعضها على

شقته العليا يسيل من أنفه، وعينه محمرة متورمة، وآثار الضرب والتنكيل بادية عليه بجلاء، ويشير بأياديه المتربة إلى تلك الجهة، وفهمت من حديثه أنه يعمل في السوق حمالا يأتيه باكرا ليحمل للباعة بضائعهم بأياديه الصغيرة على ظهره الغض، ثم ينتظر ارتفاع الشمس ليحمل للمشترين أغراضهم إلى سياراتهم أو منازلهم القريبة، ويبقى على ذلك إلى صلاة الجمعة حيث ينفض السوق تقريبا، ويرجع هو بما حصله أجرة مقابل طفولته المهدرة وصباه المضيع.

ولكن حدث في هذا اليوم أن اعترضه بعض الشباب الأرعن فضربوه ضربا مبرحا وأخذوا ما معه من مال، ويريدني أن أذهب إليهم لأستعيده منهم، ومشيت معه إلى الجهة التي ساقني لها، ولم نجد - كما كنت أتوقع - أحدا، ولا ريب أنهم فروا بشقاء المسكين وعرقه.

اعتصر الألم قلبي وشعرت بالكآبة تلفني وضاق صدري، فما كنت أتنفس إلا بصعوبة وأنا أرى بكاءه وارتفاع نشيجه وعويله، لا على ما قاساه من ضرب وركل، وليته كان كذلك إذا لخفت المصيبة، ولكن على ما ضيع من مال، فقلت له محاولا التخفيف عني وعنه: كم المبلغ؟

فقال: سبعة دنانير.

فسألته وليتني ما فعلت: ولماذا كل هذا الحزن ؟ الأمر بسيط....

فقال: إذا لم أرجع بالمال فسيضربني والدي بالتوبو.

لكأن الشمس كورت والنجوم انكدرت والجبال سُيرت والعشار عُطلت والوحوش حُشرت، أي أب هذا الذي يرمي فلذة كبده صغيرا في السوق يحمل على ظهره الأثقال، فإذا ما رجع خاوي الوفاض زاد همه هموما بالسوط على جسده المكدود؟

أهو اب فعلا أم شيطان تجسد في صورة بشر؟ !! أيمتلك في جوفه العفن النتن أعضاء كباقي مخلوقات الله أو قُد قلبُه من حجر وكبده من صوان وعواطفه من نار الجحيم؟.

واستطعت بسهولة استدراج الطفل التعس فباح لي باسم والده لتكون الكارثة ثالثة الأثافي، فوالده معلم، ترى ماذا يعلم هذا المجرم تلاميذه بعد أن حوّل ابنه البائس إلى كائن غريب لا يعرف في حياته التي لا ربيع فيها إلا فصلا واحدا هو الخريف، ولا يرى من الألوان إلا لونا واحدا هو الأسود، ولا يشم من الروائح إلا رائحة واحدة هي القمامة، إنه طفل ميت يمشي على قدمين، لم تعرف يداه قط طريقهما إلى الدمى وأدوات اللعب، ولم يحمر وجهه قط من الضحك مع أقرانه، ولم يلهث مسرورا قط من الجري خلف الكرة، فلعبه هي الأكياس يحملها، وضحكه هو الربع دينار يأخذه كالمتسول من زبائنه، وفرحه هو النجاة من

سوط والده الزنيم الأثيم.

وعلامنا نحزن أو نسكب الدموع، فهذه صورة واحدة فقط لطفل ميت حي من صور كثيرة، اخرج إلى الشارع وسترى بكل أسف وحزن أمثاله كثيرين؛ يقضي أحدهم يومه واقفا في الشارع وبيده علب الدخان يلوح بها للسيارات والمارة، وشمس الصيف المحرقة تنصب على رأسه والعرق يسيل على وجهه أنهارا ليبيع بعض بضاعته، والسبب في أحيان قليلة جدا رغبته في تحصيل مال، وفي أحيان أكثر محاكاة لصبيان سبقوه في هذا المجال الضال وزينوه له بلا رادع يردعهم أو والد ينهاهم أو أسرة تمنعهم، وفي أحيان كثيرة جدا جدا أهله هم الذين يحرضونه على ذلك، والعذر الجاهز سلفا هو فقر الأسرة وحاجتها إلى الدخل الذي يحققه هذا الصبي من هذه التجارة القذرة.

وهو عذر أقبح من ألف ذنب فمهما بلغ الفقر بأسرة في بلادنا فهي لن تعجز قط عن تحصيل قوتها الضروري وفوقه كماليات كثيرة، لماذا لا نسمي الأشياء بأسمائها ونقول إنه الطمع الفاضح والنفوس الهلوعة الخاوية، ثم لو فرضنا حاجة الأسرة إلى المال، أيكون ذلك على حساب حقوق الطفل الإنسانية وراحته؟.

إن دخول الطفل معترك الحياة صغيرا يعني الانحراف من دون أي ريب أو شك، فخبرته وعقله وإدراكه وتكوينه الجسدي كلها أقل بكثير من أن تكفل له الحماية من آفات الشارع المهلكة وسلوكياته الخطيرة، ثم نقول من خلف المكاتب الصقيلة اللامعة الوثيرة في الحجرات المكيفة المعطرة:

لا حظنا بكل أسف أن تعاطي المخدرات وحبوب الهلوسة والفجور والسرقات وجنوح الأحداث ظهرت في المجتمع، وكأن هذه الرزايا سقطت من السماء أو انفلقت عنها الأرض، ولسنا نحن من سقى بذرتها ورعى أغصانها.

ألا ليعلم الجميع أن النتيجة الوحيدة للعبث بتربية النشء هي فساد الجيل وانهيار آمال البلاد في مستقبل زاهر زاه بانهيار دعامته الأساسية وتخاذل سواعد الغد البناءة، ألا ليعلم الجميع أن حكما بالإعدام مع النفاذ يصدر في حق كل طفل ينزل إلى ساحة العمل وستسحق كرامته وشخصيته وإنسانيته بلا أي هوادة أو رحمة تحت جنازير الألفاظ البذيئة الفاجرة وقيم الشارع الساقطة، وستقتطف أيادي شذاذ الآفاق زهرة صباه ليعيش طوال عمره منبوذا مهملا تطارده الإهانات والأقاويل.

أيتها الأسرة الظالمة المارقة التي تعبثين بمستقبل بلادنا وحاضرها وتبددين أهم وأثمن ثرواتنا على الإطلاق، اعلمي أن إنفاق الطفل على الأسرة من بيع الدخان أو سواه من

الأعمال حتى ولو كان مؤذنا في المسجد هو أمر لا يقره شرع الله، فالطفل غير ملزم شرعا أو قانونا بالإنفاق عليك، وإنما واجب الإنفاق في شرع الله يقع على أب الأسرة، الرجل تحديدا، وإن أخل بهذه المسؤولية وفرط فيها فحسبه حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أخرجه أبو داود قال: {كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت} وإن بخل على أهله واستأثر بدخله ينفقه على ملذاته ورغباته دونهم فخصيمه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أخرجه الطبراني قال: {شر الناس المضيق على أهله}، وإن انتقل رب الأسرة إلى رحمة الله، ففي البلاد بحمد الله قوانين ضمانية تضمن للأسرة العيش الكريم لسنوات طويلة حتى يكبر الصغار ويقوون على العمل.

أما تلك المقولة الغبية الحمقاء التي يرددها البعض بكل بلاهة وتسليم وقبول بقولهم: دعه يعمل ليتعود على تحمل المسؤولية من صغره ويكون رجلا، فأغلب ظني أنها مأخوذة عن فم إبليس نفسه لعنه الله، فأي مسؤولية هذه التي نلقي بها على كاهل طفل صغير لا يعرف حتى للفظها معنى؟.

وإن أردنا الطفل أن يكون رجلا فطريقنا الوحيد إلى ذلك هو تفريغه للدراسة وتشجيعه على تكوين صداقات مع أقرانه المختارين من قبلنا بعناية تامة، واللعب معهم وتوجيهه للسلوك القويم، وطلب العلم النافع، وتدريبه على التعاطي مع الحياة العصرية بحواسيبها وشبكات الإنترنت وفضائياتها المرئية، ومطالعة الكتب والصحف، والتردد على المكتبات والمتاحف ومؤسسات المعرفة والثقافة، وصون كرامته وماء وجهه عن أن يريقه على قارعة الطريق يبيع ويشتري، وعندما يتسلح بالعلم والإيمان ويحسن أمور دينه من صلاة وصيام وتلاوة لكتاب الله الكريم وتقوى ملكاته وقدراته فمجال العمل المرموق المحترم في انتظاره يتحرق شوقا للتشرف به.

إن العبث بمستقبل الطفل يكلف غاليا، إنه خسارة باهظة الثمن، ولننظر في تجارب مرة قاسية لدول حولنا لنعتبر ونأخذ الدرس ونعلم ونتعلم، ففي مصر على سبيل المثال حيث يعمل مليونا طفل في الورش والمصانع الخاصة كما نشرت صحيفة الحوادث المصرية في عددها رقم 188لم يعر أحد هذه الظاهرة الاهتمام الواجب حتى نشرت مجلة روز اليوسف المصرية في عددها رقم 3336 أن 600 ألف طفل متهمون بالقتل وتجارة المخدرات في مصر، أي أكثر من نصف مليون طفل هم في السجون الآن وإصلاحيات الأحداث لفترة مؤقتة أي حتى تكتمل سنوات خبراتهم ويخرجون منها من عتاة الإجرام والقتلة.

وعندما حاولت دولة (بيرو) وهي من دول أميركا الجنوبية توفير اليد العاملة اللازمة لها

لتسيير عجلة الإنتاج بها فغضت الطرف عن مليون طفل دفعتهم ظروف حياتهم للعمل في المزارع والمصانع، كانت النتيجة سقوطا مدويا للاقتصاد في بيرو وتسجيل أعلى معدلات الفقر إلى اليوم، وتوقف معدلات النمو الاقتصادي بها على مستوى العالم.

ويجب أن نعلم جيدا أن الإحصائية الدولية المعلنة لعدد الأطفال العرب العاملين في الوطن العربي والتي حددت عددهم بعشرة مليون طفل تتراوح أعمارهم ما بين 14-16 عاما (6 مليون منهم ذكور، و4 مليون إناث) هي وصمة عار في جبين العرب جميعا لن يغفرها لهم التاريخ بحال وسينظر لهم أحفادهم غدا بمنتهى الازدراء لارتكابهم هذا الفعل الشائن الفاضح الذي سيبقى ذكرى مؤلمة مخزية تلطخ صفحات تاريخ الانسانية، وسيفا مسلطا على رقاب العرب في المحافل الدولية المعاصرة ينزل على ألسنتهم ليقطعها كلما هموا بالافتخار بحضارة أو تطور أو نمو حقيقي.

ويجب أن نعترف بأن نسبة لا بأس بها من 60 مليون طفل لا يذهبون إلى المدارس نهائيا في العالم ولا يتلقون أي علم كما نشرت صحيفة المعلم الليبية هي موجودة في الوطن العربي، فالاعتراف بالداء أول مراحل الشفاء.

وتتعدد أشكال تحطيم الأطفال ومسخهم إلى كائنات غير إنسانية وتأخذ ألوانا متنوعة، ومنها ما يتم بتشجيعنا ورعايتنا وتصفيقنا، نعم لا يستغرب أحد ما أقول فإنني أتكلم عن واقع أعيشه للأسف بحكم عملي في كل عام ويتكرر معي في كل سنة؛ إذ أدعى لحضور حفلات تقيمها مدارسنا !!.

نعم مدارسنا التي يفترض بها أن تكون هي الجهة الأمينة على الأطفال تربويا وعلميا احتفالا بالأسبوع الثقافي المفتوح أو اختتام العام الدراسي، وتتدخل يد آثمة عابثة تدنس العمل التربوي المقدس وتلوث ثوبه الناصع بممارسات خبيثة متخلفة لا تمت لديننا وأصالتنا بصلة؛ إذ تقدم الفتيات عروض وفقرات الحفل على مسرح المدرسة بحضور المعلمين وأولياء الأمور والمدعوين وهنّ ملطخات الوجوه بالأصباغ الحمراء الفاقعة تلون شفاههن وتدنس خدودهن، والظلال الزرقاء على جفونهن والكحل في عيونهن كأنهن يجلبن للبيع في سوق النخاسة، إنها صورة مقززة للطفولة كريهة قبيحة تثير الغثيان، والأدهى والأمر أنه عوضاعن أن تقدم هذه الفتيات الأناشيد الدينية والأغاني الوطنية وأهازيج الأطفال بما لها من أثر طيب وغرس لمكارم الأخلاق وحب الوطن والدفاع عنه وخدمته، نجد معلمي النشاط قد لقنوهن كل ما تبثه الفضائيات العربية وغير العربية من أغان هابطة ماجنة خليعة يندى لها الجبين.

الطفل أيها المتخلفون المعتدون على براءته وطهارته أسمته العرب طفلا لتطفله على القلوب أي أنه يفرض نفسه عليها ويدخلها بلا استئذان كيفما كان وجهه ومنظره ومستوى أناقة ثيابه، فما من إنسان سوي يرى الطفل أي طفل إلا وينشرح صدره من دون أن يسأله عن بلاده واسمه ولونه، فالطفل في الحقيقة مواطن بلا حدود تبتسم لمشاكساته وتفرح برؤيته كل الناس سواء كان من خط الاستواء أو القطب الشمالي ..

أما الأصباغ والألوان والمكياج والكوافير فوجوه الأطفال الجميلة بطبعها وخلقة الله لها أغنى خلق الله عنها، فعلامُنا نشوه براءة قسماتهم بأوساخنا وقاذوراتنا، وأي مستقبل نرسمه لطفلة تربت على هذه الممارسات الخطرة وتبلد وجهها بالظهور بهذا المنظر السمج أمام الأجانب والكبار بما فيهم آباؤها ومعلموها، وهي أم الغد ومدرسة الإنسانية الأولى وعمود المنزل وقوام الأسرة.

إنها مسرحية عبثية فاشلة، يجب أن تتدخل الجهات التعليمية المسؤولة رسميا وبقوة لإسدال الستار على أحداثها الخائبة قبل أن نصل إلى المشهد الأخير فيها.

الغريب أنني حضرت عدة احتفالات في مدارس ومراكز أطفال في دول عربية وأجنبية عديدة، فما رأيت إلا أطفالا عاديين جدا، كلهم نشاط وحيوية وبراءة طبيعية بلا أصباغ تهريجية على وجوههم، أو عقود وتيجان وخلاخيل وأساور وخواتم الذهب تكبلهم وتثقل حركاتهم، يقيمون حفلات جميلة مرحة شعارها بساطة الأطفال وعفويتهم وخروجهم المعهود عن كل نص في الدنيا معد سلفا، فما الذي جناه طفلنا لنجني عليه هكذا من دون أطفال الدنيا؟.

من المناظر المؤلمة التي تنغص علي حياتي وتكدر علي صفو يومي كلما ذكرتها؛ مشهد طفل أفريقي من رواندا في تقرير بثته احدى الفضائيات؛ زجت به عتوا وظلما احدى المليشيات المسلحة التابعة لجبهة الهوتو أو التوتسي المتنازعتان عرقيا منذ أمد هناك.

كان الطفل أصغر سنا وحجما من أن يحمل البندقية التي أعطوها له، وإنما أمسك بها بمشقة ظاهرة ليصوبها نحو جدار قصير الارتفاع يختبئ خلفه وأصوات الرصاص وقذائف المدفعية تدوي حوله وتنتشر الشظايا، والمسكين مستمر في تصويب البندقية إلى الجدار والهلع بادٍ على وجهه التعيس ويبكي بصوت عالٍ، وأعضاؤه ترتجف ويداه تصطكان بقوة، لو وزع الرعب المرسوم على وجهه على مدينة كاملة لكفاها، ولم يدر المسكين إلا ووغد بغيض عاري النصف الأعلى من جسده يعلق في رقبته حزام ذخيرة وبيده بندقية يتسور

الجدار وينظر إلى الطفل بلا مبالاة ويصوب إليه فوهة بندقيته، وبكل برود وعدم اهتمام ضغط على الزناد، ولا أحب اكمال ما رأيته بعد ذلك، فلم تعد قواي تحتمل المزيد.
شيء واحد أحب أن أضيفه هو أن عدد الأطفال الذين يحاربون في جبهات القتال المختلفة حسب احصائيات منظمة اليونيسيف العالمية تحت شعارات كثيرة جذابة متنوعة على رأسها الحرية، والحرية منهم ومن أفعالهم براء بلغ الآن 200 ألف طفل تحت سن 14 عاما، أي أن الصورة التي ذكرناها آنفا متكررة قرابة ربع مليون مرة تقريبا في بقاع الدنيا غربها وشرقها وشمالها وجنوبها .

وعذرا فقد ثقل القلم في يدي ولم أعد أرى السطور أمامي وأحتاج لأن أقفل عليَّ باب خلوتي وأذهب بعيدا بعيدا عن عالمكم هذا الذي وقوده الأطفال والحجارة.

دموع لا تجف

الحق أن للحياة أوجها كثيرة وسبلا متعددة، بقدر ما أفرحتني وأسعدتني نزل على فؤادي منها آلامٌ سحقت وجداني وتفطر لها قلبي، منها ما انزوى في خبايا الذاكرة مترددا قلقا ومنها ما يعاودني بين الحين والآخر فيغرقني في بحر حزن متلاطم الأمواج، أغرق فيه سويعات من ليلي ونهاري تطول وتقصر .

وكما أتزود من مباهج الحياة أسعد بذكراها ما بقي لي من أيام أعيشها على ظهر هذه الدنيا، أتزود من تلك الالام والأحزان؛ فذكراها يلين قلبي ويدر دمعي ويرقق فؤادي ويحول بيني وبين أن أكون جبارا شقيا ظالما عصيا، فكلا الحالين تربية وتزكية.

الحياة طائر يطير بجناحين اثنين إن شل أحدهما فلا فائدة من صحة الآخر وقوته، ويقع الطائر على الأرض كسيحا لا محالة.

بنغازي 1970م.

لم تكن ظروف الحياة وقتها كاليوم، وموارد الدخل محدودة، والناس تكدح سعيا على أرزاقها، كان يمر بالشوارع حاملا بضاعته من مصنوعات الألمنيوم غرابيل ومواقد وأطشات مختلفة الأحجام، وأواني متعددة يعلقها جميعها على جسمه النحيل بطريقته الخاصة، ويسير بها بصعوبة كأنه كومة من صفيح متحركة، تقوده ابنته لا تتجاوز العاشرة من عمرها فقد كان كفيف البصر، دوره أن يحمل البضاعة ودورها هي أن ترى له، ويصيح معلنا عن بضاعته فتناديه ربات البيوت من خلف الأبواب والنوافذ، ويشترين منه ما يلزم بدراهم معدودة حسب أسعار ذلك الوقت وينفق هو على عياله.

وفي يوم كالح لا صبح له مرت سيارة مسرعة يقودها شاب متهور لا يحسب للناس حسابا ولا يقيم لهم وزنا فصدم البائع المسكين فتناثرت بضاعته على الأرض معجونة ببعضها البعض معوجة تحت عجلات السيارة.

كان الموقف أكبر من أن يحتمله بشر، كان الرجل يزحف على ركبتيه والدماء تغطي وجهه وتنزف من رأسه وجسمه، لا لينظر حاله أو يداوي جراحه أو يجمع بضاعته، وإنما يصيح على ابنته يبحث عنها، والمسكينة مكومة على قارعة الطريق لا تحرك ساكنا، لا تسمع نداء والدها فتجيبه وتبرد نيران قلبه المستعرة لأجلها، وهرع الناس إلى مكان الحادث ولم يتبينوا الذي يريده الرجل الذي استطاع رغم آلامه وضعفه أن يخلص نفسه من أيديهم ويتلمس الطريق إلى ابنته فيحتضنها ويدفن وجهها المضرج بالدماء في صدره وينهار باكيا، لأشقى

أنا بهذه اللوحة البائسة عمري كله تعاودني فأبكي لها كأنها البارحة .

بنغازي 1981م.

يسكن مع شقيقه في منزله، وكانت لي به حاجة، قصدت منزلهم قبل ظهر ذلك اليوم وطرقت الباب وانتظرت قليلا لتفتح لي الباب طفلة في الثانية عشرة من عمرها ذابلة مصفرة، نحيفة القوام، شعثاء الشعر، حمراء العينين، ما أن طالعت منظرها الكئيب حتى تدفقت على بحار الحزن والأسى من دون هوادة وأمسكت العبرة بتلابيبي تخنقني وتمنعني الكلام، وتهدج صوتي، وخافت المسكينة من هذا الطارق بلحيته وعمامته يقف أمامها يكاد ينهار باكيا، فدخلت المنزل وتركتني واقفا أعاني ما أنا فيه.
وسألتُ عنها فقيل لي أن والدها توفي وارتحلت أمها المصرية إلى موطنها لتعيش مع أهلها، وضمها عمها إلى أسرته طمعا في معاشها الضماني، فاستولى عليه كله، لا ينفق عليها منه شيئا، ثم أجبرها هذا الظلوم الغشوم على ترك المدرسة وتحولت شيئا فشيئا إلى خادمة في المنزل، تلبس رث الثياب وتكنس وتغسل وتطبخ وتنظف الأطفال وركنت في زاوية الإهمال، وضعف جسمها الصغير عن تحمل كل هذه الأشغال الشاقة المؤبدة، فانهدت قواها واجتاحتها الأمراض تنهشها وتغرس أنيابها في جسدها النحيل ، لم تفارق هذه الفتاة عيني من يومها.

درنة 1988م.

معلمة في مدرسة الأمل بالساحل الشرقي في مدينة درنه تخشى ربها وتحترم مهنتها لاحظت على أحد تلامذتها في أوائل المرحلة الإبتدائية ضمورا وشحوبا وكآبة تعلو قسمات وجهه البريئة، ونشيجا وبكاء بلا سبب ظاهر، وعزوفا عن اللعب مع أقرانه، كما أنه لا يشاركهم مشاكساتهم الطفولية المعهودة، ولا يستجيب لأحاديثهم ونداءاتهم المتكررة وبقي الأمر يسوء يوما بعد يوم حتى لاحظت بعينها التربوية أنه يمشي بصعوبة لا يكاد يحرك رجليه إلا بجهد ظاهر.
استغلت المعلمة ذات القلب الكبير فرصة سنحت واختلت بالتلميذ تحايله وتستدرجه لتعرف أسباب ذلك، وبعد محاولات الإقناع والترغيب نطق الطفل بأهوال يعجز عن مكابدتها أشداء الرجال، قال:
إن زوجة أبيه وأباه أيضا دائما الضرب والتوبيخ له بسبب تبوله في الفراش ثم إن زوجة أبيه - ويا ويل الطفل من زوجة الأب إن لم تخش الله - لجأت معه إلى طريقة أخرى لايقافه

عن ذلك، فكانت تحمي ملعقة في النار حتى تصير جمرة ملتهبة حمراء، وينزع أبوه عن الطفل ثوبه ويمسكه بقوة، ويفرج بين رجليه وتكويه هي بين أفخاذه، ويهددانه بعد ذلك بقولهما أنهما سيكويانه أكثر إذا ما تحدث عن هذا الأمر !!!

وارتعب الطفل وعقدت المأساة لسانه وانعكست على نفسه الصغيرة، فتهشمت على أيدي هذين الجبارين العاتيين اللذين نزع الله قلبيهما وأحل محلهما حجارة قاسية؛ زوجة أب خرجت عن جنس بني الإنسان إلى فصيلة الأفاعي والتماسيح، وأب لا يستحق شرف الأبوة، يخجل مجتمع الرجال أن يُعد عليهم مثله خنع لزوجته الآفكة ممتثلا في ذل وهوان لأوامرها الشيطانية الشريرة وأساليبها الإبليسية الرهيبة ضد طفل ضعيف لا يرد عن نفسه أذى.

أيها المجرمان الملوثان بآلام هذا الصغير وصرخاته الضعيفة تتردد في جنبات داركما فلا تأبهان، الطفل زينة الحياة الدنيا وبهجتها؛ حياته لعب ولهو وأكل وشرب ونوم وقُبَل تطبعها أسرته على وجناته، وضم وتدليل، يأمر فيطاع ويطلب فيلبي.

أيها المجرمان <u>إنما سمي الطفل طفلا لتطفله على القلوب يدخلها بلا استئذان ويفعل بها ما يشاء فلا يرده أحد</u>.

أيها المجرمان حتى الضباع والخنازير تدافع عن أولادها وترد عنها الأذى، فانظرا منزلتيكما !!!

أخبرت المعلمة مديرة المدرسة السيدة قوت شعيب التي استدعت والد الطفل إلى إدارتها وكاشفته بجريمته، وبضحكات سخيفة باردة وردود لا مبالية حاول المجرم الأثيم تهوين فعلته وأنه على المديرة والمعلمة إلا تصدقا كل ما قاله الطفل وأنه ابنه ولا يحق لأحد أن يتدخل في شؤونه !!!

ولأن رائحة الشر العفنة تأبى إلا أن تفوح، فقد جاست هذه المأساة خلال الديار، وطالت الألسن هذا الأب الآثم وزوجته الضالة في غيابهما وحضورهما، ولكن كل ذلك لم يجد نفعا؛ إذ بقيت الضحية في زنزاتهما بين أيديهما لا يعلم إلا الله وحده ما يفعلانه بها أناء الليل وأطراف النهار !!!

أما الطفل صاحب هذه الكارثة المريعة فإذا ما رأيته بملامح وجهه الطفولية الكئيبة ونظراته المشتتة المصوبة من دون تركيز إلى لا شيء فهو لا ينظر بعينيه الذابلتين إلى وجه أحد، وجسمه النحيل وملابسه المتهدلة لرأيت الحديد يتفتت لمرآه والحجر الجلمود الشديد ينتحب ويبكي لحاله، أما إن مشى مكابدا آلام كي فخذيه في أكثر الأمكنة حساسية في جسده فيا

بحار الأسى تدفقي، ويا هموم الدنيا تراكمي.

دسوق - مصر 1991م.

كنا في زيارة إلى مصر زرنا خلالها أولياء الله الصالحين، أذكر منهم سيدنا الحسين والسيدة زينب وسيدي الشعراني وسيدي الخواص في القاهرة، وسيدي أبا العباس المرسي وسيدي ياقوت العرش وسيدي البوصيري في الاسكندرية، وسيدي أحمد البدوي في طنطا.

ثم دخلنا مدينة دسوق لزيارة سيدي إبراهيم الدسوقي (ت676هـ) وبسهولة تصل إليه إذ هو مركز مدينة دسوق بل إنها لولا سكناه بها ما كانت لتنمو، وقد بُني عليه مسجد كبير جدا بحجم مسجد المرج عندنا، وأحيط بسوق كبير به بضائع مكدسة ومطاعم وأناس تبيع وتشتري وهناك في ساحة المسجد تحت شمس الظهيرة المحرقة كانت تجلس شابة في العشرين من عمرها مهلهلة الثياب حافية القدمين، صفراء الوجه تبيع بضاعتها المكونة من جرار وقلال فخارية للشرب مكومة أمامها وتنتظر زبونا يشتري جرة تكسب من ورائه ما تتقوت به، راعني منظرها البائس الفقير وذلك الجوع وآثار الحزن المرتسم على وجهها البرئ، مثلها في هذه السن تكون منعمة بين والديها، أو مدللة في بيت زوجها تمشط شعرها وتعطر بدنها، وترتدي الثياب النظيفة، وتلتقي مع صديقاتها لتضحك وتمرح.

أما أن تكون على هذه الصورة البائسة المريعة وهي في عمر الزهور فهو عندي كيوم الحشر.

غلبتني دموعي وخنقتني العبرة، وناديتها من السيارة فجاءت مهرولة تحمل بعض بضاعتها لتقنعني بالشراء، وما أن اقتربت حتى حلت الكارثة الكبرى التي كادت تزهق نفسي من بين جنبي !! لقد كانت أما مرضعا عرفت هذا من أثر الحليب المتيبس بغزارة على صدر ثوبها البالي.

مددت يدي والأسى يغمرني وأخذت منها جرارا وقلالا لا أعرف عددها فقد كنت أبكي من محاولاتها الساذجة اقناعي بجودة بضاعتها وزيادة عدد مشترياتي منها، وأعطيتها ما وصل إلى يدي وانهمرتُ بالبكاء وهي تفرح بالمبلغ والسعادة تلوح على وجهها التعيس، وقالت كلاما كثيرا لم أفهم منه حرفا إذ كنت مشغولا بالام نفسي جراء ما رأيت !!

هذا غيض من فيض ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي االعظيم

حـبـيـبـتــــــي

ارقدي يا أملي الباسم، وروحي الغالية في أمن الرؤوف الرحيم وأمانـه إلـى أن نلتقـي فـي حين يعلمه الله تعالى هناك حيث الكل في واحد .

==========

حبيبتي جميلـة جدا كورود الربيـع، لطيفـة كالخيـال الزائـر، رقيقـة كنسـمة الصـيف، شـعرها أسود غزير، نـاعم كالحرير، تمشطه بسهولة فيصير كالموج خلفها، وأهدابها سوداء طويلـة تخفي بهما عينيها الباسمتين الكاحلتين، وابتسامتها خلابة تكشف درا منضدا ولؤلؤا مرصـعا وجواهر ثمينة، أما سائر جسدها فقد صنع ويا للعجب من حليب صاف ومسك أصيل وشـهد مكرر مزج جميعا ليكون مخلوقا رائعا .

كنت أسميها بمئات الأسماء أنطقها في وقتها بلا تفكير ولا اعداد فهي:

بلبولة وكركوشا وبلن وطبطوبة وأعبدا وألولا و..و..و.. وهي كلمات أرجو منـك إلا تبحـث عن مفرداتها إذ لن تجد معانيها في معاجم اللغات الحية والمنقرضـة، وإنما ستجدها فقط فـي قاموس واحد غير مكتوب بقلم تحفظه القلوب المحبة الوالهة عن ظهر قلب، والغريـب أننـي لم أعلم متى حصلت حبيبتي على درجة الدكتوراه في علم هذا القاموس لأنهـا كانـت تلبـي النداء حالما تسمعني، بل قد أكتفي أحيانا بنغمة موسيقية أناديها بها فتجيب قائلة: نعم .

لقد أدركت أميرتـي منذ البدايـة أنـه تحمـل أسمـاء كل فتيـات الدنيا فتعاملـت مـع هذه الحقيقـة بواقعية.

كنت معها ملكـا مدللا مطاعـا؛ إن أردت الدمقس النـاعم والحريـر الأصـيل ضـممت جسدها الصـغير إلـى صـدري بقوة وتوسدتها فأغيـب فـي لـذة لا تـدرك، أو أردت أكل عسـل مكـرر وشهد منقى قبلت وجنتيها الورديتين أنهل من رحيقهما بقدر ما أشاء حتى التخمة، أمـا المـاء البـارد العذب فقد كنت أشربه من شلال عينيها الواسعتين صرفا فما أرتوي .

عجيب كيـف استطـاع هذا الجسد الصـغير أن يـزرع كل هذا الحب حولـه، ثـم هجرتنـي يـا (هاجر) في بداية الطريق وأنا ظمآن أكاد أسقط من العطش فكل مـا أغدقتـه علـى بإسـراف وتبذير منذ ولدتِ يوم 1991/8/29م حتى الآن لم يكن سوى رشـفة فقط من كـاس خصـك الله تعالى بشرابه دون كل خلقه وأخذتي الكأس معك واستعجلتي الرحيل .

يوم السبت 2005/5/28 م ياله من يوم حملتك في الصباح في سيارتي ومعي حبيبك الشيخ عمر الأزرق والد صديقتك (حفصة) التي كانت قبل يوم واحد معك في حجرتك هي وأختك

الأكبر (زينب) ، وأنا أسمعكم من مقعدي وسط المنزل تؤلفن وتخرجن وتمثلن مسلسلات بلهجات عربية يصعب علي نطقها، كنتن تتكلمن لهجة عرب الخليج ولسان أهل مصر لقد حولتن الحجرة إلى شاشة تلفزيون خاصة بكن تبث على قمر صغير غير صناعي اسمه (قمر البراءة) يستقل كل أعمال الأطفال ومقالبهم من على أديم الأرض ثم يرسلها إلى أنظمة ديجيتال مجانية خاصة بلا أسلاك ولا أدوات ولا كهرباء يمتلكها فقط الأطفال وهم فقط يعرفون طريقة تشغيلها ومواقع أزرارها .

كان معنا في السيارة أيضا شقيقك الأصغر (الرفاعي) رفيق لعبك المفضل، ووقفت بك أمام المدرسة وفتحتي الباب ونزلتِ لتري نتيجة تعبك وسهرك الليالي، كنت خائفة وجلت تقدمين رجلا وتؤخرين أخرى، وغبتِ داخل الأسوار هنيهة وخرجتِ ورأيتُ البسمة والفرح على محياك الجميل فعرفت النتيجة قبل أن تنطقي بها لأنني يا حبيبتي أستطيع أن أقرأ كل ما تخفيه بطلاقة تامة من على صفحات ذلك البدر أقصد الوجه البديع .

لقد نجحتِ إلى الصف الثالث الإعدادي فيا لها من عطية أن ترحلي عنا فرحة جذلة مسرورة بنجاحك وتدخلي عالم الآخرة بعد ساعات قليلة من دخولك سور مدرستك وتجلسي إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام في السماء السادسة حيث هو هناك مع أطفال فارقوا أهلهم باكرا مثلك يحضنهم ويدللهم ويلاطفهم ويحنو عليهم إلى يوم يلتقي فيه اللاحق بالسابق، وذلك عقب غيابك في باقة ثرثارة من زميلات دراستك أمام باب مدرسة النصر بدرنة.

إنها مفارقات غريبة، ومن يختار لكم ربكم أيها الأحباب الصغار ليعتني بكم سوى سيدنا إبراهيم الذي رزق الذرية على كبر، فأحب أولاده حب الفاقد الواجد بعد شوق ومقاساة.

لقد أعطي الذرية في اكتمال عقله وأوج نضجه فعرف قيمتها وأنزلها منزلها فكان من الطبيعي أن يتسع حب ذلك النبي الرباني ليمرح فيه في السماء كل الأطفال كما يحبون.

كنت سعيدة بالنتيجة تبلغين بها صديقاتك وأحبابك ولا تكتفين بذلك، بل توسعين رقعة عرسك الطفولي البهيج فتتناولين الهاتف لتبلغي الجميع أنك نجحت ليكونوا آخر من تهاتفينهم في دنيانا.

وجاءت جارتك (فاطمة) زميلتك في الدراسة تبكي عدم توفقها في امتحاناتها يومها فتتألمين كعادتك لحالها وتخبريني بذلك، لا أعرف كيف انطوى قلبك الصغير على كل هذه المشاعر الكبيرة؟

نسيتي أن تخبريني يا (حبة الفؤاد) قبل رحيلك المر كالحنظل عن المكان الذي تخفين فيه معاملك الخاصة لتكرير المياه؛ لأن الماء صار بعد رحيلك مرا لا يشرب، وكذلك وصفاتك

السرية لصنع الطعام لأن لا شيء صار بعدك يؤكل، والنوم تحاصرني ذكرياتك فلا يلم بي إلا قليلا بعد مشقة ليغادرني عل وجل كالضيف المتعجل، أما الدموع فقد سكبت ولا زلت منها الكثير، أكثر مما سكبت طوال عمري مجتمعا.

لــم يخلــق الــدمع لامــرء عبثــا *** والله أدرى بلوعــــة الحــــزن

الله يربحك يا جميلة الشمائل وحلوة الخصال، فلطالما غمرتني بالسعادة وأفضت البشر على قلبي، أتذكرين عادتي تلك:

حيث أضغط بشفتي وأسناني على رؤوس أصابعك الندية وباطن ذراعك النضر، فتتركينها لي أفعل بها ما أشاء، وأنا أسألك منذ تعلمت النطق في اليوم عشرات المرات سؤالي المكرر للمرة المليون قائلا:أنت ابنة من؟ وصاحبة من؟

فتقولين (بابا) .. لقد كنت تسقينني وقتها يا حبيبة بابا السعادة بلا كيل، أسعدك الله حيثما كنت بلا كيل .

أفتح مغاليق قلبي الكئيب لبعض الأحباب أحيانا لأصفك لهم فأقول: إنك ابنة كما يحب الخاطر ويشتهي، فلا شيء قط فيك يذم .

(تاتوا) العزيزة يا بهجة الخاطر، وربيع الوجود، لقد أبكيتُ أصحابي عندما تركتهم ولحقت بفتاة بدت لي من بعيد مثلك، ودخلت شبيهتك حماها الله لأهلها تقفز وتلهو إلى منزلها، وسألت (أنا) صاحب الدكان المجاور عنها ؟! تصوري يا قلبي وبصري أنني كنت أريد أن أطرق بابهم وأدخل المنزل لأحضنها وأبكي وأبكي وأبكي تماما كما كنت أفعل معك، حيث كنت أحضنك في الأيام الخوالي بكل قوتي فلا يقوى عل ذلك جسدك الصغير حتى تتألمين، لكأنني كنت أعرف مبكرا قصر مواعيدنا معا، ولطف الله بي فتداركت نفسي ورجعت عن تلك الخاطرة .

جاءتنا الأمس الحاجة مريم من بنغازي لتعزينا فيك، وتعلمين أنها كانت فقدت منذ أجل قريب فتاها الباسم المرح البار بها (سامي) رحمه الله في حادث سيارة وهي معه فنجاها الله وتوفاه، وهي ثاكلة من يومها لا ترقأ لها دمعة، ولا يهنأ لها فؤاد، وهي صفات صرت منذ فراقك خبيرا بها عليما، أتدري يا مهجتي أنني بعثت في طلبها لأنني شعرت أنها الوحيدة التي تفهمني، كما أنني الوحيد الذي يفهمها، فنحن نتكلم لغة مشتركة لا عرفها الله تعالى لغيرنا، فأتتني من بين النسوة إلى منزل عمك (عبد المجيد) المجاور لأقفل الباب علينا معا نبكي سويا، أترين أيتها الغالية ما فعلته بأبيك الذي تأتيه الناس لطلب الفتوى في دينهم

فيقتيهم، وإن حضر في مناسبة حزينة صبر أهلها وصابرهم وذكرهم وقوى عزائمهم على مصابهم، لقد صار الطبيب بعد رحيلك يا حلوتي عليلا.
لقد كنت قاسيا على (ميشو) بسبب موائها المتكرر في الليل والنهار الذي سبق رحيلك بأسبوعين وأظنها كانت تودع صديقتها الحنون التي تأخذ من طعامها أنفسه لتطعمها، وأقامت لها حفل (أسبوع) عندما ولدت صغارها الخمس، ووزعت لأجلها المكسرات والحلوى على الأهل والأصدقاء، لأن الحيوانات يا بسمتي المضيئة لها فطرتها التي لا يدرك كنه أسرارها الإنسان، ألا ترين كيف كان الهدهد في سورة النمل مؤمنا موحدا لله، محاورا بالحق كأنه تخرج من أرقى الكليات الإسلامية بفطرته.
سامحيني يا بنيتي واغفري لي، أقسمت عليك بالله أن تفعلي، بحق دموعي التي أسكبها وأنا أكتب لك الآن وأي آن، فهي لا تتوقف إلا لتعود من جديد، فربما قسوت عليك أحيانا وأغلظت لك وأسأت معاملتك، ولكننا نحن الاباء نفعل هذه الأفعال السمجة بكم معشر الأطفال.
ليتني أستطيع أن أكفر عن ذنوبي تلك معك، وليتني أستطيع أن أطرق على أبواب كل الاباء في العالم لأقول لهم حافظوا على أطفالكم نعمة الله عليكم بالشكر، لا تقسوا عليهم، أشبعوهم وأشبعوا منهم حبا وحنانا وودا وأمانا، ضموهم إلى صدوركم، قبلوهم لا عبوهم فهو زينة الحياة الدنيا عز من وصفهم سبحانه بذلك .
كما أحب يا زهرة يا سميني وعبير عطري أن أخبرك بسر وهو أننا أنا وماما وإخوتك قررنا ترك منزلنا الذي فيه ولدتِ وفيه عشنا معا لأنه صار بعد رحيلك مزدحما جدا بذكرياتك وأشيائك ومقالبك وضحكاتك، ولم يعد يسعنا كلنا فكان من الطبيعي أن نرتحل عنه بلا نظرة وداع، أما أنت فكل ذي لب يعلم أن أمثالك ممن لم يجر عليهم قلم التكليف يسكنون قصورا في الجنة واسعة منيفة تحوطها البساتين المورقة والأزهار المتفتحة والثمار الدانية والمياه تجري من تحتها أنهارا باقية بقاء الخلد، أما مساكننا فهي من طوب واسمنت وصنع البشر شتان بين الدارين .
تصوري لقد أثار رحيلك عندي تساؤلا ما كان ليخطر على بالي من دونك قط، وهو:
كيف تراهم يعيشون أولئك الذين لا قرآن في حياتهم يطمئن قلوبهم ويزيح عن ظهورهم ثقيل أحمالهم؟
أما أنا فإنني أجد في كتاب الله الكريم قول الحق تعالى: {**وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** – المنافقون 11}، وقوله تعالى {**وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ**

مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ – النحل 61}، فتسكن نفسي القلقة وتغمر مشاعر الرضا صدري لأنني أتيقن أنه ما كان لعمرك أن يزداد يوما واحدا أو يتأخر، فالحمد لله على نعمة القرآن، ثم الحمد لله الذي تفضل بأن علينا بك لتسعدينا كل هذا الوقت، كل ما في الأمر أنك أمانة جميلة أخذت من مستعيريها وردت لمالكها الحقيقي سبحانه.

لا تسأل يا فخري ويا زهوتي عن أعداد من جاءونا للعزاء فيك مشكورين مثابين إن شاء الله رجالا ونساء وأطفالا وكهولا، شيبا وشبابا، منهم من أعرفه ومن لا أعرفه، ومن سبق لي أن رأيته أو سمعت به ومن لم أفعل، ومن كل حدب وصوب، ومن عجز عن الحضور بشخصه أرسل عزاءه كتابة، ومنهم من قدم هو ومكتوبه معا أتعرفين لماذا ؟!

السبب بسيط جدا وهو أن أهل القلوب الطيبة والمشاعر النبيلة كلهم يحبونكم جدا أيها الأطفال ويتألمون لرحيلكم فجزاهم الله عنك وعني خيرا فقد كانوا بلسما فعالا لجراح الفؤاد.

ومن أسراري التي أخفيها عنك أيضا يا حشاشة القلب أنني كنت سأطلب مهرك يوما القرآن الكريم يُحفظك ما تيسر منه من يختاره الله لك؛ لأنك أثمن عندي من المال والذهب وكنوز الدنيا، ولا يوجد أصلا بين أيدي الخلق ما يفوقك قيمة إلا كتاب الله الكريم فاخترته لك مهرا، وعسى الله أن ينفعني في محنتي هذه بعدك بهذه النية.

ولكن شاء الله تعالى لي ولا اعتراض على حكمه، بل التسليم والرضا والصبر لجلاله والشكر لجوده أن أودعك باكيا محمولة على الأعناق في طريق لا يعود منها المسافر، فليرحمك الله وليتداركنا بلطفه الخفي.

كما أعلمك أنني سأذهب أنا وماما التي سكنت بعدك محرابا نورانيا كله طهر ناصع وقداسة مهيبة لا يدخله أحد قط غير الأمهات الثاكلات قريبا في عمرة إلا بيت الله الحرام وهناك حيث لا يخيب الدعاء عند الكعبة المشرفة سنرفع أيدينا إلى الله تعالى نسأله أن يبدل حبك بحب الله ورسوله، ثم سنمضي إلى المدينة المنورة حيث ساكنها الرؤوف الرحيم الذي يحنو على كل الحزانى ويمرح في أحضانه الرحبة الأطفال كما يشاؤون لأنه يحبهم كثيرا عنده صلى الله عليه وسلم وآله بجواره تماما، بل بملاصقته الشريفة سندفنك مجددا، أقصد ندفن آلامنا وأحزاننا أملين أن يعيدنا ربك تعالى إلى الحياة بعدك من جديد.

أهذا أنت أم قناع ترتديه ... ؟

ميزة الكاميرات القديمة ذات اللونين الأبيض والأسود أنها كانت صادقة معنا تظهرنا كما نحن، أما الكاميرات الرقمية الحديثة فهي كذابة دجالة تظهر الناس سعداء يبتسمون أو يضحكون وكأن كل حياتنا ضحك وسرور .

===========

الصور دفاعنا الصغير في وجه تقدم الزمن، ومن العجيب أن تتسع وهي ورقة صغيرة لا وزن يذكر لها لأطنان من العواطف والمعاني والذكريات تعجز عن حملها الجبال الراسيات حتى الكرة الأرضية على ضخامتها الشاسعة حملتها صورة فوتوغرافية تُباع في الأسواق فقط بربع دينار إنني أشبه الصور دائما بالعصفور الذي حمل الفيل على ظهره وطار به.

يمكن للكاميرا أن تلتقط صورنا مبتسمين ولكنها لا تستطيع أن تلتقط صورنا سعداء.

وجمع الصور هو من هواياتي القديمة التي نمت معي منذ كنت طفلا قبل أن أعرف باب المدرسة حتى صار عندي منها اليوم مئات ومئات أكوام بأحجام ومناسبات وأزمنة وأمكنة مختلفة أخزنها في حقيبة قوية كبيرة، تاريخ ومعالم ومدن ومساجد وزوايا ورجال ونساء وأولياء الله الصالحين وكبار العلماء والصلحاء والمجاهدين أقدمها تاريخيا عندي صورة الشيخ عبد العزيز الدباغ صاحب الابريز من فاس المتوفى سنة 1720م والشيخ أحمد الدردير صاحب الصلوات المتوفى في 1788م من مصر وتجد أيضا حفيد الشيخ أحمد التجاني شيخ الطريقة التجانية من فاس، وكذلك الشيخ الرواس من العراق المتوفى سنة 1870م والشيخ أحمد العلوي شيخ الطريقة العلوية من الجزائر المتوفى سنة 1934م والشيخ عبد الباقي المكاشفي من السودان المتوفى سنة 1960م وعشرات غيرهم، هذا إضافة إلى كل أحبابي تقريبا وأسرهم وأطفالهم تجد صورا كثيرة لهم عندي لا أمل النظر أبدا فيها وثق أنه بإمكانك إن تأملت صور أحبابي مليا أن تراني فيهم جميعا فهم الواحة الخضراء الوحيدة في صحراء حياتي القاحلة ولولاهم لهجرت الخلق وعشت منقطعا في كهف لا أرى أحدا ولا يراني أحد.

ابتسامات الحزانى أشد أنواع البكاء إيلاما.

وهي هواية كانت تسعدني في البداية ولكن ومع الزمن صار فيها أيضا ما يبكيني ويحزنني

بل وحتى ما يرعبني بل أنني أنظر أحيانا إلى حقيبة الصور فأراها لهيبا مستعرا فاغرا فاه ليبتلعني فأهرب منها ،،، إنني أكرهها أكرهها.

صــــورة:

منذ أن تجاوز الثلاثين من عمره وهو دائم التفكير في سلوك أمه المشين ولولا اخوته في المنزل وهو أصغرهم لضربها وأدبها وإن تمادت قتلها شر قتلة جزاء أفعالها الفاجرة ولكنه لا يجد الفرصة لذلك.

ماذا يسمع؟ هؤلاء الذين يجلسون على ذلك المكتب يتكلمون عنها، كله بسببها لعنها الله وأخزاها لو كانت امرأة مستقيمة مثل جاراتها وقريباتها لما قاسيتُ كلام الناس عنها انهم ينظرون إليَّ باحتقار وشماته ويتحدثون بهمس ولكنني سأوقفهم عند حدهم، سأكلم المدير.

- من فضلك مرهم فليتوقفوا عن الحديث عني وعن أمي.
- من هم؟
- أولئك الذين يجلسون على ذلك المكتب.
- حسنا،، اذهب أنت إلى عملك وسأتولى الأمر،، أنتما من فضلكما تعالا،، لما تتكلمان عن زميلكما؟
- والله العظيم نحن لا نتكلم عنه فهو صديقنا وزميل عملنا منذ سنين ولطالما مرحنا وضحكنا معا أما أمه فهي عجوز وقور تقارب السبعين من عمرها نحترمها ونجلها كأنها أمنا، ولكنه منذ فترة وهو تنتابه هذه الهواجس الغريبة كانت لفترات قليلة ثم صارت تطول مدتها يوما بعد يوم وهو يعتقد أن كل اثنين أو أكثر يتحدثان انما يعنيانه هو أو أمه.ا.هـ.

أما في المنزل فيقول له شقيقه وهو مشفق عليه من هذا الضيق والكدر والانهماك في التفكير:

- ما رأيك يا أخي لو نذهب بك إلى أحد الشيوخ ينظر في أمرك؟

قالها أخوه وهو في أشد التألم لما عراه إذ تعود أن يراه بشوشا ضاحكا وطالما سعد به مشهورا بالكرم وشدة الذكاء وكثيرا ما افتخر بموهبته التي لا تُجارى في نظم الشعر الشعبي بأنواعه وحفظ الكثير مما قاله الشعراء الشعبيون الأقدمون ومساجلات البادية ونوادرها وقصصها واليوم هاهو يراه بهذا الحال.

ويخجل من أخيه أن يرفض طلبه فيوافق فهو أيضا فقد لاحظ على نفسه تصرفات ما كان يعهدها من قبل، ويسافر معه مسافة 170كم إلى الشيخ ولكنهما لا يجدانه في منزله إذ كان

مسافرا فيرجعان إلى مدينتهما بيد أنه يشعر بانتكاسة ومرارة لذلك ويغرق في بحيرة التفكير في أمه وسلوكها المشين، ويطمئن نفسه بأنه سيرجع إلى الشيخ مرة أخرى ويجده.
لقد صار يلاحظ حجارة وعلبا فارغة وبقايا فاكهة وخضروات وأوراق وأحذية وأشياء كثيرة غيرها أصبحت تقذف عليه أحيانا لا يرى أو يعرف من أين تأتي وأحيانا يراها يلقيها عليه من حوله كانت في البداية أشياء صغيرة مثل النقط ثم صارت مع الأيام تكبر وتكون أجساما واضحة المعالم لعينيه، وهو لم يكن قط طوال عمره شجاعا بالمعنى الصحيح للكلمة وهو الأمر الذي حال بينه وبين الرد بالمثل على من يراهم يتكلمون عنه أو يلقون عليه هذه الأشياء لذا فإنه يكتفي بالشكوى منهم ومحاولة اخافتهم.
أما الآن فالأمر تغير إلى حد كبير إذ صار يرى أشخاصا من بلدان شتى وبوجوه متعددة فهذا عربي وهذا أوروبي وهذا صيني ولا يخلو الأمر من بعض الإناث الحسان يتهافتن عليه ويبتسمن له ويحادثنه، ولكن لا يراهم سواه إنهم يبتسمون له ويكلمهم و يكلمونه ويقضي ساعات يتبادل معهم حوارات ومواضيع، وهو مستريح جدا لذلك ويشعر بأنه يحقق كل أحلامه وأمانيه فهو في هذه الحوارات دائما المنتصر صاحب الحجة القوية وله النهاية السعيدة التي يتمناها، بل تطور الأمر إلى عقد صداقات حميمة وعدوات أيضا مع بعض اولئك الرجال والشباب كما غرق في قصة حب مشتعلة مع احدى تلك الحسان فهو يراها كل يوم في أي وقت يريده صباحا أو مساء وهي ودودة متساهلة لا ترفض له طلبا على كثرة طلباته بما فيها تلك التي يتحرج الانسان من ذكرها.
ولكن أهله اضطروا أخيرا لحجزه في دار موصدة لا يخرج منها فقد ساءت حالته وصار لا ينتبه لما حوله يسير في الشارع يلوح بيديه ويتمتم بشفتيه أما ثيابه فهي أي شيء وأحيانا لاشيء على الاطلاق، وفي تلك الدار عاش حياة كلها بذخ وأصدقاء وسفر ولكنه عالم خاص به لا يشاركه فيه سواه.
أما في عالم الواقع فأهله يستعدون الآن للسفر به إلى الخارج وحملوه إلى المصوراتي لأن تجديد جواز سفره يحتاج صورا ولقد كانت صورته جميلة جدا وهو جالس أمام الكاميرا أنيق الهندام ممشوط الشعر مبتسما.

<u>صــــورة أخرى:</u>

البعض يتمنى ألا يطلع النهار لأنه كابوس طويل.

تخرج في الصباح إلى محل عملها كعادتها منذ قرابة العشرين عاما فهي موظفة في أمانة

تقع بالمجمع الحكومي ابتدأت بمؤهل طباعة على الآلة الكاتبة ثم تقلدت وظائف إدارية ومسؤوليات أكثر بحكم التزامها بالحضور وقدمها في مكان عملها وإلمامها بأموره مع حسن معاملة لزملائها والمواطنين المترددين لقضاء مصالحهم وحسن سلوكها وثقة الأمناء المتتاليين في حسن إدارتها للأمور أكثر منهم شخصيا، ولكنها تشعر اليوم بسعادة استثنائية غامرة فقد أثمرت أخيرا مجهودات زميلتها في العمل في اقناع رجل مطلق بعد زواج منذ سنين بعيدة لم يدم إلا شهورا لا أولاد له بالزواج منها وهاهو حلمها الذي طال انتظاره حتى كادت تيئس من تحقيقه يتجسد أخيرا أمامها ، وسيأتي أهله اليوم لخطبتها وقد أقنعت أخاها الأكبر بألا يبالغوا في الشروط فالرجل موظف محدود الدخل وهي عندها المال وراضية بكل شيء لا طلبات عندها على الاطلاق.

وافتخرت في محل عملها بالخطبة ناثرة بعض الأكاذيب التي يحلو للنساء ترديدها في مثل هذه المناسبات عن كثرة الخطاب الذين طرقوا دارها وأنها رفضتهم جميعا لأنها غير مقتنعة بهم وأنها وافقت هذه المرة ارضاء لأهلها فقط الذين يضغطون عليها على هذا الرجل بالذات لمزاياه وثناء الناس عليه وبعد أن توسل لها هو شخصيا هاتفيا لتوافق، وابتسمت زميلاتها في خبث فهن يعرفن هذه الاسطوانة القديمة قدم القارات الست لأنهن هن أنفسهن طالما رددنها، أما زملاؤها فقد تمنوا لها من قلوبهم حظا طيبا وسعادة إذ كانت محبوبة منهم جميعا.

وأعدوا العدة في المنزل وجاء أهل خطيبها وفيهم أخته وهي عجوز وأم أولاد وبنات، ولكن العروسة شعرت منذ البداية أنها تخفى خبثا شديدا ومكرا خلف ألفاظها المنمقة وابتساماتها الكثيرة التي ترسمها على وجهها المجعد وأخرجت الكاميرا من حقيبتها وأصرت أن تلتقط للعروسة صورة تذكارية بالمناسبة السعيدة فوافقت وهي في أوج سعادتها وزينتها، وكان ذلك آخر العهد بموضوع زواجها إذ دفن في قبر منسى إلى الأبد وأورثها حسرة وحزنا وخيبة أمام أهلها وزملائها لم يفلح أحد في علاجها قط.

<u>وصـــورة أخرى:</u>

وجوه البائسين لا تعرف الكذب.

عينان جاحظتان ووجه غير متناسق كثير التجاعيد والنتوءات وبدانة مفرطة زادها قصر القامة إثقالا، بُح صوتها حتى تحول إلى فحيح مشروخ من كثرة ما تصيح طوال يومها بالمارة جميعا بلا استثناء وتلعنهم وتسبهم وتشتمهم بأقذع الألفاظ وتحذفهم بالحجارة تمشي

حافية وتدخل الدار وهي تصيح بذلك الصوت المخنوق لتغيب قليلا ثم تخرج لتواصل صياحها وما كانت تقوم به وبقربها أطفالها الثلاثة ينظرون إلى أمهم وهي تقوم بأفعالها تلك ثم تأخذهم تارة مسرعة إلى الداخل وتارة تخرج بهم ومرة تضحك لهم ومرة تعبس وهم يمشون خلفها وقد تعودوا سلوكها الغريب على صغر سنهم بملابسهم البالية ووجوههم الصفراء وشعرهم الأشعث تعطيهم بين الفينة والأخرى ما يأكلون مما حضر بلا توقف عن السب والشتم.

ولكن جارهم هذا الرجل البدين الذي تكرهه إنه يفسد دائما عليها خلوتها بإحضاره التموين من الجمعية لها رغم أنها لم تطلب ذلك منه ولا من غيره وحمل أطفالها للمستشفى إن مرض أحدهم وكسوتها هي وهم في الأعياد، وقد أبى اليوم إلا حمل طفلها إلى المدرسة رغم اعتراضها وسبها له بأقذع الألفاظ وانتزاعها للطفل من بين يديه بالقوة عدة مرات حتى كادت تخلع ذراع الصغير عن جسمه ولكن الرجل أصر واستطاع رغم شراستها انتزاع ابنها منها وتركها والطفل في يده يبكي مهرولا بعد أن ألمته حجارتها تصيبه بقوة في ظهره ورجليه تلعنه وتبكي هي الأخرى وحمل الطفل إلى منزله حيث غسلته ابنته الكبرى وكسته ثيابا جميلة ومشطت شعره بعد أن فركته له بالشامبو ولمعته بالدهان، وخرج الطفل ويده الصغيرة مطمئنة في يد جارهم إلى مصوراتي القرية ليلتقط له صورة عامه الدراسي الأول مبتسما تُغطي الضحكة وجهه الشاحب وأسنانه الصغيرة تبدو فيها لامعة فرحا بثيابه الجديدة وحذائه الجميل والشكولاته التي دسها له الجار في جيبه ليتوقف عن البكاء وكانت بالفعل صورة جميلة باعتراف المصور نفسه.

<u>وصـــورة أخرى:</u>

قد يكون القلب ميتا رغم أن دقاته مستمرة.

أما الصورة الأكثر إحزانا ليّ وإيلاما فلا شجاعة عندي ولا أستطيع أن أكتب لك عنها لأن دموعي ستغلبني ويدي التي تمسك القلم ستخذلني وجرحي الغائر في قلبي الذي يأبى أن يندمل سيعاودني وسأنهار كأنني جدار قديم متهالك عصفت به الأعاصير، هي مصدر شقاء ليَّ وحزن طويل كتب عليَّ أن أتجرع كأسه المر بعد أن أصبحت حياتي تتحول يوما بعد يوم إلى مجموعة من الذكريات أغلبها كئيب.

ويكفيني ويكفيك ما وصفت لك في هذه الصفحات من الآم لفحات لهيب موجع مخزن في أوراق لماعة يطلقون عليها اسم الصور الفوتوغرافية لا تلمني إذ صرت أكرهها وأكره

الحقيبة السوداء التي أجمعها بها.

أين أنتــم ؟

ياله من وصف رباني بليغ أحاط بالموضوع إجمالا وتفصيلا أقصد قوله تعالى: {**إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ** ـ المائدة 106}.

لقد أحاط اللفظ القرآني الكريم بالموضوع كله في كلمة إعجازية واحدة.

إنه مصيبة بكل معنى الكلمة، العقل يذهل تحت وطأتها والوجدان يتألم من حر نارها والدموع تتفلت من محاجرها خارجة عن السيطرة، أشد الرجال وأقواهم ينهار تحت ثقل الآمه المبرحة حتى لا مفزع له إلا آهات حرى يتنهدها علها تطفئ نار فؤاده المتقدة وهيهات.

الموت سر لا زلنا لا نعرف عنه إلا أنه خليط مر كالعلقم أو أشد مرارة متكون من القهر والألم والعجز والوجع وجراح الفقد تُمزجُ معا وتُسقى فجأة وبلا سابق مقدمات لمن ابتُلي بتجرع أسقامه.

السبت 2010/02/6م كنت في المقبرة أواري صهري الشاب ونيس الناجي العوكلي التراب في مقبرة الفتايح لقد لاصق في تربته الرجل الصالح العارف بالله المؤدب اسما وصفة عبد الرحمن المؤدب ونعم الجوار، الفقد مصيبة عظمى وتكون أعظم ألما وصعوبة إذا ما كان الفقيد في ريعان صباه ومقتبل حياته وعوضا عن أن تراه مبتهجا يمرح ويلعب ويمزح تلفه في كفن وتهيل عليه التراب الثقيل وتتركه في العراء وحيدا تحته.

ليت الأمر توقف عند هذا الحد بل جلت مجبرا بنظري في أرجاء المقبرة اقرأ ما كتب على شواهد ساكنيها،، الكتابة على شاهد قبر الميت هي ميثاق وفاء وعهد أكيد بأننا لن ننس فقيدنا وسنتعهده بالزيارة والدعاء له بظهر الغيب وإلا فهي قطعة جماد ملقاة في العراء لتلهو بها الأمطار والرياح في غيابنا.

- ياآآآه هذا قبر سيدي عبد الجليل الفزاني رجل مبارك من أولياء الله الصالحين قدم إلى مدينة درنه قادما من واحة الغريفة في فزان بعد أن طلبته إدارة الاستعمار الفرنسي وقتها للعقوبة بسبب مواقفه الوطنية فعاش في كهف في درنه محل تبرك العارفين بقدره واحترامهم لم يمتلك من حطام الفانية شيئا حتى لقي وجه الله، كنت أنا من صلى عليه لقد رأيت وجوها من الناس يومها يبدو عليها الصلاح لا عهد لنا بهم في المدينة.

- وهذا قبر الحاجة زكيه القرقني امرأة ذاكرة عابدة من الصالحات المباركات أخذت عني دلائل الخيرات وحزب سبحان الدايم ساهمت بحر مالها في بناء العديد من المساجد داخل درنه وخارجها بل أخبرني والدي عن أن برها وصل لمسجد في أقصى البطنان.
- وهذا صديقي المبروك الجربي أديب درنه الفصيح الذي تحدثت مع جامعة درنه لتكريمه كأحد أكبر شعراء المدينة المعاصرين المتميزين خصوصا وقد وهب شعره لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ولمدح آل بيته الكرام بيد أن المنية عاجلته قبل ذلك.
- وهذا عبد القادر الحصني كان زميلي في التعليم كان مدرس جغرافيا في مدرسة إبراهيم الأسطى عمر كان كله أدب وخلق توفي شابا وترك أولاده صغارا صافحت أحدهم وكان يشبهه مرة ففاضت عبرتي على لحيتي.
- وهذه ابنتي هاجر توفيت غريقة في ريعان صباها ولم تتجاوز الأربعة عشر ربيعا وتركت في القلب خنجرا غائرا أعياني على مر السنين شفاؤه.
- وهذا خالد العبيدي كان طالبا نجيبا عندي في منارة الصحابة للعلوم الشرعية مثالا للخلق والثقافة ومكارم الطباع لقد كنا لمستواه العلمي وثقتنا فيه نسند إليه مهمة تعليم زملائه رغم كونه لا يزال طالبا بسبب عجز عانيناه في المدرسين حتى تخرج من الأوائل عندنا.

لسوء الحظ جل من عرفت قبورهم أو قرأت اسماءهم على الشواهد ذلك اليوم حالك السواد كانوا أقرباء وأصحابا وأحبابا ولن أفِ ذكرهم أو حقهم مهما قلت أو كتبت وإنما هي الآم تراكمت على قلبي فعذرا إن سكبت وزن شعرة منها على صفحات الشلال آملا أن يغسل تدفقه بعض أحزاني {**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ**}.

هـــــي

هي دفـء للأوصال الباردة وشفاء للأسقام الكائدة وضياء ينير للسائرين طريقهم وأمل في غد مشرق بعد ليل بهيم انها أرزاق واثمار وأشجار انها حياة.

==========

التي أعنيها هي تلك الطفلة الجميلة اللطيفة صاحبة الابتسامة العذبة والنفس الزكية النقية التي فوجئت بها على حين غرة ترتدي معطفا أبيض وتضع على أذنيها سماعات وتتأهب لتكون طبيبة تشخص لزائريها أمراضهم وتمد لهم يدها بالعلاج، لقد أشرقت وعلت في الأفق تنيره ساعة بعد ساعة حتى هاهي تستعد لتتخرج من الجامعة طبيبة.

ترى هل كنت أنانيا عندما رفضتُ اسما سابقا لكِ تفوح منه رائحة لا أحبها وسميتك آملا حسن فأل لي قبل سواي راجيا إشراقا صافيا يكتسح الظلام يمزقه ويحيله أشلاء مبعثرة؟

وعسى ألا يثقل عليك يا ابنتي الغالية أن أكون أول من يأتيك للعلاج قبل أن تتكاثر عليك الأعمال وتثقلك الواجبات وتعتادي أنين العليل وشكوى المريض فدونك استجمعي كل ما قرأتِ في مراجع الطب ومجلداته وما لقنك اياه أساتذتك ومعلموك، وحضري كل أجهزة تحاليلك وجهزي جميع مجساتك وأخرجي كافة قناني عقاقيرك وأوراقك وأدواتك فقدرك أن يكون أول مرضاك مثقلا بعلل تكيد عشرة مستشفيات وتخلي مائة صيدلية وتعجز ألف طبيب معا ولا ثقة له في أحد سواك فيا للأيام وما تفعل.

فأول عللي يا ابنتي الغالية إنني أعاني آلاما في فؤادي مبرحة مضنية وقلبي كله أشجان أما باطني فلو اطلعتِ عليه لوليتي منه فرارا ولمُلئتِ منه رعبا فهو كهف به أخاديد عميقة تسيل منها الآلام، أنهارا وجراحا غائرة خلفتها يدُ الزمان لم تلتئم قط على مر السنين.

لقد ذقت الحنظل مرات ومرات وطالما ظننته أمرَّ ما في الوجود حتى ذقت طعم نكران الجميل ورد المعروف بالإساءة وتطاول الباغين واجتراء الظالمين، فإذ بالحنظل عسل نحل مكرر وما كنت أعلم، ومشيت على الأشواك حافيا بلا نعل يقيني أذاها وظننته طريق الأهوال حتى داست أقدامي في طريق الحياة مسامير مدببة حامية تخترق جلد القدم وتهتك لحمها وتسيل دماءها إنها مسامير من يقابلون الإحسان بالإساءة والخير بالشر إنهم أولئك الذين يؤذون المرء وهو عالق بينهم لا يستطيع من قدره معهم فكاكا فإذ بالشوك حرير ناعم إذا ما قيس بها وبهم وما كنت أدري.

ومشيت في شبابي سائحا في البراري شهورا لسنين وحيدا لا أنيس لي إلا حقيبة بها مصحف وكتاب دلائل الخيرات وسبحة بلا زاد ولا ماء وما معي إلا توكلي على ربي هو وحده سبحانه زادي وملاذي أرى الذئاب مكشرة أنيابها تتقاتل بشراسة فلا أبالي وأسمع عواءها ليلا ونهارا فأزداد أنسا وأستمتع بلهو الثعالب وعراكها وأبتهج بتغريد العصافير وشقشقتها وأحزن لجوارح المخالب وهي تسطو عليها بقسوة بين الفينة والأخرى فتجعل ريشها في الهواء هباء منثورا.

تهطل الأمطار الغزيرة فتغمرني مياهها ويثور الغبار عاليا والرياح العاتية قوية فأحتمي منها بشجر أو حجر وأضل الطريق في الصحراء تارة وأهتدي، ورعاة الشاة مابين متقرب لي متودد وخائف مني وجل متردد، حذرا من أن أكون من أبناء الليل ورواد الخطر حتى خالطت الناس ووخزتني أشواكهم وضرستني أنيابهم ولاكتني ألسنتهم وطالتني أيديهم وتقاذفتني مكائدهم وأكاذيبهم وعرفتهم عن كثب وما كنت أعرفهم قبل ذلك فإذ بذئاب الصحراء مجرد أرانب بريئة صغيرة بالمقارنة بهم وجوارح الطير وكواسره تبدو وديعة مثل سلحفاة عجوز معهم.

صدقيني أيتها الحبيبة لولا أحباب أصفياء وأفاضل أوفياء صحبونا في الله تعالى وصرت وإياهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى أستريح لمرآهم وأسمع لكلامهم ويطمئن قلبي إلى صفو ودادهم لرجعت إلى سياحتي تلك في الجبال والوهاد وهجرت الدور والمنازل وفارقت أهلها غير مأسوف عليهم، مرددا قول من قال:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى *** وصــــوّت إنســـانٌ فكــدتُ أطيـــرُ

كما أنني يا ابنتي من الآمي المبرحة التي أشتكي منها و تنغص عليَّ صفو حياتي ، إنني دائما أبكي كل يوم تقريبا منفردا وأحيانا أبكي بلا صوت وفي أحيان كثيرة أبكي بمرارة شديدة بأصوات متعددة أستغرب كيف تخرج من حلقي حتى يغلبني النوم، وبالبكاء عجوز مثلي إنه شيء مهول المرآى والمسمع طعمه مر كالعلقم يفطر القلوب ويدميها أسأل الله ألا يريكه قط، ومع هذا فإنني أفرح لمرأى من أحبهم وقد عرف الواحد منهم نفسه فعرف ربه وأجده فرحا مسرورا يلبس خير ثيابه ويعتز بقدراته ومواهبه يعرضها أمامي مزهوا فأبتهج له وأشاركه مشاعر انتصاره الكبير وأشجعه وأشيد به معتزا مفتخرا متأملا حمرة خجل الاطراء تكسو وجهه سعيدا بالثقة التي اراها تسري في أوصاله سريان الماء في الأغصان ليكون وقد وجد ذاته إنسانا جديد سعيدا ولكن تعاودني الآمي عندما اراه بعد ذلك ذابلا

منهارا جسدا لا روح فيه وقد أفقده نفسه مرة أخرى من يجتهدون في إفساد الحياة وإظلامها أمام الناس لقد تفهوا عمله وبخسوا قدراته واستهزءوا بها بينما حرَّمها عليه آخرون ومنعه عنها أولئك ليسقط المسكين متألما صريع الجهل، فهل عندك لكلينا من دواء؟

كما أشكو اليك أيتها الطبيبة الحبيبة غصة في حلقي ما فتئت تخنقني إذا ما كنت وحيدا وأطلب الدمع لتزول فيأبى أن يطاوعني وتتيبس محاجر أعيني ولا يجهش صوتي فتلازمني تلك الغصة طوال يومي وعبثا تذهب محاولاتي الحثيثة لا اخراجها من صدري انها أشبه ما تكون بكرة ماء تسد الحلق وتمنع الطعام والشراب وتقطع النفس لا تتزحزح عن مكانها لخارج الجوف أو داخله.

إنني أعتقد أن مرضي الأساس الذي أعاني من ويلاته كثيرا هو آلامي المتراكمة التي صارت مثل إناء مترع ينغمس فيه كل قلبي، وزادت استفحالا بسبب الحياة المزدوجة التي أعيشها حيث أبذل ما بوسعي مع الآخرين لأبدوا أمامهم طبيعيا فيسعدون وأتجرع كاسات الآلام المترعة وحيدا ولا يعلمون، فعجلي بالدواء قبل فوات الاوان، ولن يهمني ان كان هذا الدواء كريه الطعم أو الرائحة ثقي إنني سأتناوله عن طيب خاطر كأنه رشفة من عسل المهم أن يكون ناجعا أكيد المفعول.

نسيتُ أيضا يا ابنتي أن أخبرك انني امتلكت ذات يوم القمر، نعم القمر الجميل ذا النور الفضي البديع الذي يعلو عن الأرض مترفعا ولا يجلس إلا في العلا متربعا، القمر الذي حارت في جماله العقول وعجزت عن بيان معانيه النقول لقد كنت أسعد الناس به أفتخر به مزهوا بيني وبين نفسي واراه مكسبا عظيما خصني الله الكريم به دون سائر خلقه فلهج لساني بحمد المعطي سبحانه وشكره، وعشت معه في سعادة متصلة تجلو عني طلعته المشرقة كل كدر وهم وتفتح إشراقته نوافذي الموصدة وأبوابي المغلقة فتدخلها رغما عني لتبدد ظلماتي وسحب سمائي، كان قمرا عجيبا لا يشاركني فيه أحد يضيء في ليلي لي وحدي وحتى وقت الضحى يزداد إشراقا، ولكنني افتقدته منذ أشهر فجأة وبلا سابق انذار اختفى من أمام ناظري ولم أقو على فراقه فطرقت أبواب الكرام أطلبه رحمة بشيبتي الفاقدة ومهجتي الواقدة ودمعتي العاقدة، وها أنا أنتظر وكل ساعة بسنة وكل يوم بدهر، ألا ما أصعب الحياة بلا قمر ينيرها وما أظلم السماء من دونه.

لذا فإنني أريدك أن تسقيني مخدرا قويا سريع المفعول يخفف عني آلام الانتظار ومشاقه كي لا تطحنني عقارب ساعة الزمان الصلبة قبل أن أبل شوقي إلى قمري الغائب لا أطال الله عني غيبته فإنني منذ يوم فراقه وأنا أصارع وقت النوم قنافدا كثيرة مختلطة صغيرة وكبيرة

ذات أشواك حادة طويلة مدببة تسبقني إلى فراشي وتدخل تحت وسادتي تزاحمني مرقدي أهشها عني فلا تمشي وأزيحها فلا تبتعد فأقضي ليلي كله منها في نصب ما بعده نصب، وهي تسكن في مكان ما لم أعثر عليه بعد في حجرة نومي تقضي يومها مختبئة فيه فإذا ما رأتني ألقيت بجسدي على الفراش خرجت من جحرها ذاك في لمح البصر مسرعة وقفزت إلى السرير لتنغص علي نومي فلا هي تتركني ولا أستطيع أنا منها فكاكا، صحيح إنني تعودت عليها وألفتني وألفتها واعتدت مقاسمتها لي فراشي ولكنني لا أكره أن تختفي من حياتي ولا أعرف الوسيلة لذلك بيد أنكم معشر الأطباء شعاركم في كل العالم أفعى تلتف صاعدة على ساق كوب لتنفث في قدحه سمها ثم تحيلون أنتم سمها ترياقا ولن يصعب عليك يا بُنيتي أن تعيريني هذه الأفعى أياما لأسكنها معي فهي والقافد عدوان لدودان منذ وجدا على ظهر الدنيا.

والصبح أيضا يا ابنتي الغالية ويا للعجب صار لا يطلع إلا بعد العصر، لا أدري ما الذي دهاه فإنني أقضي الليل أتقلب منتظرا إياه ويأبى أن يطلع تاركا إياي أعاني الظلمة الطويلة والوحشة الرهيبة ثم اكتشفت أنه صار منذ يوم فقدي لقمري مقيدا بسلاسل فولاذية صلبة تعيقه وتعطل إشراق نهاره وتمنعه من البزوغ في أوقاته المعتادة كما سمعت أن خصمه الليل أعلن مزهوا منتشيا بعد أن رآه يزداد كل يوم تخاذلا وتأخرا عن القدوم إلى ساحة النزال السرمدية بينهما انتصاره عليه وخلى بذلك أخيرا له الكون.

وأنا أعلم أنك طبيبة بشر ولست طبيبة كواكب ولكنك ملكة الأيام المتوجة بلا منازع فدونك أرسلي جيوشك البيضاء الناصعة إلى معسكرات الليل البهيم ولقنيه درسا قاسيا كي لا يتجاوز حدوده وانتصري لخادمك الصباح فإنني أخاف عليه الموت إن استمر في ضعفه وسقمه وتخاذله عن قتال خصمه المظلم.

وحيث أنني أكتب اليك الآن أيتها الطبيبة فيجدر بي ألا أخفي عنك شيئا من أعراض الداء أو الدواء فليس من الصواب تناول العلاج من دون استشارة الطبيب فإنني يا ابنتي أتناول على غفلة من الآخرين وحيدا حيثما لا يراني أو يسمعني أحد دواء أرجو ألا تمنعيني منه إذ لا أخفي عليك إنني أجد فيه راحة كبيرة وأغتنم الفرصة لأستشيرك فيه وهو عبارة عن أنين أضمنه آهة طويلة تعودت أن أطلقها من صميم صدري حتى ينقطع نفسي ثم ألحقها بأخرى فأشعر ببعض الراحة لفترة ثم أعيد ذلك مرة أخرى وأحيانا مرات ومرات، ومن العجائب أنني عندما كنت شابا أطلب الحديث الشريف وآخذه عن أفواه أهله رضوان الله عليهم في أقطار الدنيا الواسعة كنت إذا ما مررت بالحديث الذي أخرجه الديلمي في مسند الفردوس

ونقله الحافظ ابن حجر في الزهر عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعندنا عليل يئن، فقلنا له: اسكت فقد جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: دعوه يئن فإن الأنين اسم من أسماء الله تعالى يستريح إليه المريض.ا.هـ.

لقد كنت أجدني وقتها أذهب إلى رأي قاله بعض سادتي العلماء في تضعيفه سيما و تخصصي في أسانيد الحديث الشريف ومتونه يدعم رأيهم، ولكن بعد أن عركتني الدنيا وفعلت بي ما شاء لها أن تفعل أدركت بقلبي لا بعقلي أنه صحيح سندا ومتنا، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مواسي المتألمين والصدر الحنون الذي يلقي عليه المكروبون رؤوسهم ليبكوا ويبكوا حتى يذهب الله عنهم ما يجدون هو الأعرف في خلق الله تعالى بشؤون بني الانسان وشجونهم وآلامهم وهمومهم ومن غيره يعرف الدواء ويأذن بتعاطيه فجزاه الله عنا خيرا.

وأحسب أنني أطلت عليك يا بنيتي وأحزنت فؤادك وأثقلت قلبك فأستسمحك عذرا في الاكتفاء بهذا القدر، والسلام.

دماء الخطيئة

الخطيئة كأس مزركش مترع عذب المذاق ما أن تتناول منه رشفة حتى ترغب الثانية فإذا ما أفرغته في جوفك فاجأك طعم مرارته التي لن تعرف حقيقة مذاق حنظل علقمها إلا مع ةخر رشفة لك من قاع كأسها .

===========

تكوين الفتيات كتكوين فاكهة الموسم الشهية تلوح براقة أخاذة لذيذة المذاق والمنظر والرائحة تسر الناظرين ولكنها لا تدوم على ذلك طويلا بل تقضى أياما معدودة وهي مرغوبة مطلوبة محبوبة ثم يتناقص طلابها يوما بعد يوم حتى تضطر في آخر موسمها لأن توسع مكانها لفاكهة الموسم المقبل.

ولهذا السبب تحديدا أوجدت الطبيعة الأم في الفتاة من حيث لا تدري غريزة السير مرغمة نحو هدف واحد هو الزواج وقت نضوجها قبل أن يفوت الاوان وهي نقطة ضعفها التي يسهل الفتك بها من خلالها.

تتلفت باهتمام وقد سمعت صوته يردد على مسامعها البكر إعجابه الشديد بقوامها الممشوق ووجهها البديع ويحمر خداها خجلا مما قال ولكنها تستحضر أمامها في ثانية واحدة ملفا ضخما جدا به كل وصايا أمها وتجارب صديقاتها وحزم والدها وبطش اخوتها فلا تعيره اهتماما ، ولكنه لا يتوقف فهو يشاطرها نفس محل وظيفتها وتراه ويراها كل يوم لساعات طويلة يقضيانها على المكتب بلا عمل يُذكر سوى الفراغ وتناول الافطار وإعادة قراءة المجلات والصحف والملل القاتل الذي يدفع بالإنسان إلى الحديث حتى مع الحجر الأصم ليشعر أنه مازال إنسانا.

أما هو فلديه خبرة لا بأس بها في التأنق بالثياب الحديثة ومشط شعره بالكريمات ورش العطور النفاذة على جسمه واستعمال الألفاظ المؤثرة مع حفظ جيد للأغاني وأسماء المطربين والمطربات وآخر أخبارهم، وهو لا يمل من وصف عينيها بأنهما ساحرتين وشعرها بأنه ناعم كالحرير ومحياها بأنه مثل ورد الربيع، ووجدت نفسها تخبر صديقاتها مؤكدة لهن ما لاحظنه منذ مدة فشجعنها على التجاوب معه قائلات:

ومن التي تتزوج يا مسكينة من دون حب مسبق اليوم؟ لا تكوني معقدة فأنت أكبر شقيقاتك وفي الثامنة والعشرين وأمثالك تزوجن وأنجبن، ماذا تنتظرين تجاوبي معه ولن تخسري شيئا؟

ولكن أبي وأخوتي وأهلي لو علموا سيقطعونني إربا ؟؛
لا تهتمي، ومن سيخبرهم؟ ومن أين يعلمون أصلا؟
ومدت رجلها لأول خطوة فابتسمت له ومد هو رجله عشر خطوات بأن أخبرها عن مشاعره الجياشة نحوها وعواطفه المتدفقة عليها منذ رآها، وأنه لم ير قط فتاة في جمالها ورقتها، ثم توالت الخطوات يتخذها الطرفان كل من ناحيته وعلم كل الموظفين بهذه العلاقة المتزايدة وجلهم لم يتدخل وبعضهم خاض فيها بلسانه والآخر همز ولمز، والقلة حذروها من عواقب هذه التصرفات ولكن بعد أن وصلت الأمور إلى نقطة ألاَّ عودة فالفتيات يترددن في إقامة هذه العلاقات الخطرة عليهن بحكم قيود مجتمعنا المحافظ ولكن إذا ما خضنها أغلقن الأعين والآذان وسرن في الطريق إلى آخره وللأسف فإن الهاوية هي نهاية هذه الطريق غالبا وأقل أضرارها أن تفقد الفتاة سمعتها أو أن تبقى أخبار علاقتها كابوسا يروع أمن حياتها إذا ما تزوجت من آخر وأحيانا تكون النتائج أخطر وأكبر.
قال لها الناصحون إنه طائش تعود التغرير بالفتيات أمثالها ولم يجنين من ورائه إلا الشوك ولكنها رفضت بشدة لأن حبيبها أخبرها بأنه لم ولن يحب سواها وأقسم بحياتها الغالية أنه سيخلص لها مدى العمر ولوح لها بالطُعم الذي قلما يخيب مع النساء فمناها بالزواج والشقة الدافئة والأثاث المريح في أرجائها، والأطفال يمرحون في جنباتها والحب يرفرف على حجراتها وسرحت بخيالها إلى تلك الحياة الرخية الناعمة الموجودة بأدق تفاصيلها في عقل وأحلام كل فتاة في عالم خاص بها مترامي الأطراف لا يوجد إلا في خيالها هي فقط مصنوع من خيال صرف لا مكان للواقع فيه على الاطلاق.
وتوالت اللقاءات في الوظيفة ثم خارجها ثم في الأسواق ثم في الشوارع قليلة المارة وتأججت عواطفها وظهرت على وجهها بوضوح وجلاء تلك السمات التي لا تخفى على من خبر الدنيا إذ من الأسرار الغريبة في دنيانا هذه أنه مهما تعددت وجوه النساء وأعمارهن وثقافتهن زمانا ومكانا فهن يتحولن إلى نفس الصورة والوجه والهيأة إذا ما وقعن في الحب حتى تكاد تحسب كل نساء الدنيا توائما ولدن من بطن أم واحدة لأب واحد فتكون الواحدة منهن كأنها سكرى حتى الثمالة بشراب لم يذقه سواها وتراها مثل العليل الواقع تحت خدر الوهن بين النوم واليقظة فصوتها دافي أقرب إلى الهمس وعيناها فاترتان ناعستان كأنها قامت لتوها من النوم وذهنها شارد تجلس مع الناس ولا تكاد تعلم مما يقولون شيئا تحب الأطفال بشدة وترى في كل واحد منهم ابنها الآتي لا محالة من حبيبها الواعد تزداد حبا لأهلها كأنها ستفارقهم غدا تفضل الوحدة على الجماعة والاستلقاء على العمل وتحاول أن

تكون مثالية نموذجية رافضة أي نقد يوجه اليها وتنكب بنهم على أحاديث الغرام والهيام تحرص على متابعتها في التلفزيون والكتب والحواديث ولا تنام قط قبل أن تتفقد بخيالها تفاصيل أمنياتها وأمالها المنتظرة.

وركبت سيارته التي جابت بها شوارع مدينة درنه وتنقلت برفقته بين أحياء شيحا والبلاد والساحل الشرقي ثم توسعت الجولات إلى الشلال وسيدي خالد وعين بنت ومزارع الفتايح وشط كرسه وتماسك الكفان الفتيان لأيام بقوة وإصرار يعبران عن علاقة قوية ناشبة بأظفارها في فؤاد كليهما ثم تقاربت الأجساد لأيام أخرى في أحضان ملتهبة متلهفة متعجلة ثم وفي لحظة فاصلة تحت وهج تلك العواطف المتقدة بوقود قوي قوامه طيش الشباب ونزقه واستعجاله أكل الرغيف قبل أن يعجن، وما درت بنفسها إلا وهي تتنازل طائعة مختارة عن أمانة الله عندها لمن لم يأت البيوت من أبوابها.

وتكررت اللقاءات وتتابعت التنازلات من قبلها كتعبير منها واقعي عن حبها الأكيد لفتى أحلامها وثقتها المطلقة فيه وأنها لا ولن تبخل عليه بشيء وكل ما يريده على العين والرأس وأقنعت نفسها بأنها زوجته فعلا وليست تلك الشكليات من مأذون يدون بيده ورقة كبيرة تحمل تواقيع الشهود ومراسم الفاتحة وتهنئات الجيران وأثقال المهر والذهب وزغاريد الأهل وصوت غناء فتيات الأسرة وتطبيلهن وقصاع الطعام واللحم بذي بال أو تعني أي شيء مادام يحبها وتحبه وسيأتي أوانها فلا داعي للتعطيل والعرقلة.

ولكن الطبيعة لا تجامل أو تهادن أحدا وهي لا تسير إلا وفق ما برمجها عليه خالقها سبحانه من قوانين ونواميس غير عابئة باعتراضاتنا واجتهاداتنا وعواطفنا وتعليلاتنا فهي تظهر الرائحة العفنة التي لا نريدها وتنبت الحنظل والشوك في بساتيننا وتثير الأعاصير العاتية والبراكين الملتهبة على رؤوس الغافلين عنها إنها منطلقة كالقطار المعدني الثقيل الذي لا يتوقف بمسافريه قط لا يهمها شيء على الاطلاق وليتيقن كل من دخل بين تروسها القاسية أنها ستطحنه وتطحنه ثم تنثره أشلاء لا محالة بغير رأفة أو دمعة حزن وهكذا قوانين الحياة شئنا أم أبينا.

فكان أن غاب عنها ما تعودت النساء على معاناته كل شهر ثم ابتدأت تشعر بغثيان وقيء وتعب وإنهاك ولأنها ليست غبية أو قاصرا فقد عرفت منذ البداية هذه الأعراض وأبلغت حبيب القلب بما تجد فطمأنها بأنه لن يتخلّ عنها وأنه مسرور بابنه منها وواصل معها مشاوير الإثم وهي لا تريد أن تستمع لصوت عقلها الذي يرسل لها إشارات التحذير بين الفينة والأخرى فتترجمها لحبيبها على شكل طلبات رقيقة غير ملحة أو متبرمة بينما هو

ينكب على مائدتها التهاما ويعطي الوعود تلو الوعود ويشرح ويتحدث عن ظروفه وأحواله وأبيه وأسرته حتى تكورت بطنها حبلى للعيان لا تكاد تخفى ولم تجد جوابا على الأسئلة المنهالة عليها كالرصاص المنهمر إلا أن تطرق باب دارنا وتدخل لتقيم عندنا وتشرح لنا كل قصتها بإسهاب وتفصيل.

وأبلغ والدي المعتاد كأبيه وجده من قبله على قدوم هاته المسكينات المغرر بهنّ إلى داره بعد أن أعيتهن السبل الشرطة التي حققت معها ودونت أقوالها في دارنا وأبقتها عندنا حفاظا عليها من بطش أهلها ونقمتهم ريثما تتوالى الاجراءات وجيء بحبيب القلب إلى مركز الشرطة وعقد عليها مرغما خوف التبعات والسجن ولكنه طلقها بعد شهر واحد من إنجابها لطفلة جميلة أسمتها مستورة، فلا أحد في شرقنا يبقى على امرأة أعطت قبل أن تأخذ وحصدت قبل أن تزرع، وسيبقى هاجس فعلتها معه سيفا مسلطا على راحته واطمئنانه وعرضه وشرفه مخافة أن تكرر مع غيره ما فعلته معه.

وأقنع والدي أهلها بإعادة قبولها في أسرتهم مجددا كأمر واقع لا بديل له وفعلا رجعت في يوم أسود كئيب كأنه يوم عزاء وابنتها في يدها إلى دار أبيها الذي أسمعها كلاما يذوب منه الحديد كزبدة على صفيحة ساخنة، وأدركت على الفور أنه صار يكرهها ويكره اليوم الذي ولدت فيه ويتمنى موتها اليوم قبل الغد بل ويكره نفسه بعد أن صار مضغة في أفواه الناس ومجالسهم ومحتقرا بين اخوته وقبيلته وأصدقائه وجيرانه، وأمها تبكي وتتنهد حسرة على ابنتها التي خيبت آمالها وكذّبت أحلامها بأن ترى بكريتها ذات يوم امرأة محترمة في عصمة رجل محترم تتحدث عنها مفتخرة قائلة:

هاهي ابنتي قادمة من منزلها لزيارتنا هي وزوجها وأولادها في سيارتهم وتزهو بها على جاراتها وتكيد بها حسادها ولكن ويا للخيبة هاهي ابنتها عوضا عن ذلك ألقت بنفسها في الوحل وتلوثت بقذارات الرذيلة العفنة مختارة برغبتها.

أما اخوتها فقد صارت وجوههم سوداء كالحة كالفحم وتزداد سوادا وكلاحة مع كل دعابة ماكرة يطلقها أحد الجيران أو لفظ يحتمل أكثر من معنى يقوله أحد الأصحاب، حتى الطفلة الجميلة جمال جدي الغزال في وادي الربيع مستورة لم تفلح ابتساماتها وبرأتها وحركاتها اللطيفة المتكررة في استمالة قلب أحد من الأسرة وحتى إن جنت بعض الشفقة عليها في مرض أو بكاء أو مشهد طفولي جذاب انقلب إلى كره ومقت بمجرد أن تأتي إلى أمها احدى الجارات أو القريبات لتنظر اليها وتقول: أهذه ابنة أأ ,,, وتسكت فينهار كل شيء.

كرهتها شقيقاتها وحملنها مسؤولية اعراض الخطاب عنهن، تجنبتها الفتيات بأمر أهلهن

خوفا عليهن من فسادها وسمعتها، وصار أكل لحمها وعرضها موضوع حديثهن المفضل بما فيهن صديقاتها وزميلاتها في العمل ويصل حديثهن مسامعها فتبكي وتتألم وتستغرب منهن هذا التصرف وهن اللاتي شجعنها يوما، ولم تدرك تلك المسكينة أن النساء يفضلن الحديث بالسوء عليها وعلى مثيلاتها ليظهرن شرفهن ومكانتهن ومنزلتهن عند السامع زوجا كان أو أهلا أو سواهم والأشياء بأضدادها تُعرف.

كما أصبحت ضيفا غير مرغوب فيه في المناسبات الاجتماعية السارة فهي كالشاة الجرباء لا يحادثها أو يجلس بجانبها أحد رغم ما تحاول أن تجتذب به الاخرين من التزامها بارتداء الحجاب ونبذ التبرج والتزين والصلاة في أوقاتها أمامهم والحديث الملتزم، تبتسم لمن حولها منهن فتعبس لها وتحادثها فلا ترد عليها وتعلق على حديثها معجبة فتتبرم منها وتؤيد وجهة نظرها لكسبها فلا تهتم بها وتمد لها يد العون فترفضها، أما عيون ووجوه السيدات الكبيرات وهن يرفعن حواجبهن ويمصمصن بأفواههن متقززات بازدراء واحتقار لها فهي سياط من نار تلهب ظهرها، لقد عاشت قهرا متزايدا وإحباطا متكررا كل يوم وساعة ورفضا اجتماعيا كاملا من قبل الجميع حتى صارت أشبه بالجريح الذي يأبى الاخرون برء جرحه فهم يخدشونه بأظافرهم كلما التئم ليسيل دمه أمامهم وهم لا يشفقون ولا يرحمون.

لقد احتاجت المسكينة لوقت طويل جدا لتعلم أنها أصبحت من أهل برزخ الدنيا فلا هي شريفة ولا هي فاجرة، ولا هي شابة تنتظر الزواج ولا هي مطلقة ولا هي أرملة، ولا هي مقبولة ولا هي مرفوضة، ولا هي حية ولا هي ميتة، ولا هي ابنة ناس ولا هي مقطوعة من شجرة، واحتاجت لوقت أطول لتتعود على دماء الخطيئة تنزف منها كل يوم من أيام حياتها الجديدة جراء سكاكين الألسن الحادة تنهش في لحمها وتسبقها بالسوء إلى أي مكان تأتيه وعيون الرجال المفترسة للحمها وإلحاحهم المستمر عليها بالقول والفعل والرمز والإفصاح لينالوا منها ماناله من سبقهم كأي بغي غيرها فليس ذلك الرجل بأحسن منهم في شيء، أما هو فلا زال معها في نفس محل عملهما وتزوج بحسناء من أسرة محترمة أنجب منها أولاد وبناتا، ولطالما قالت لي كلما لقيتها وتحادثنا: أنها إذا ما رأته بين الفينة والأخرى تشعر كأن فؤادها هواء، فأقول لها: لا زلتي تحبينه؟.

فتقول: نعم ،،، إنه فاتحة عمري وأول رجل في حياتي وأجمل ذكرياتي ووالد ابنتي، أنام على صورة وجهه وأصحو وأتذكر كل كلمة قالها لي عندما أغفو، فكيف أنساه؟

فأدعو لها من كل قلبي قائلا: لطف الله بك.

حتى ذلك اليوم الذي تركت فيه مستورة تلميذة مرحة نشطة في المرحلة الاعدادية بعد أن

أورثتها إتمام دفع فواتير مأساتها من بعدها ورافقتنا فيه ملفقة في قماش أبيض لنواريها قبرا ضيقا في جبانة الفتايح جراء مرض عضال عصف بكبدها التي تقرحت من حب جارف لحبيب لا يستحقها ولا يستحقه.
كانت خفيفة الوزن في أكفانها وأنا أوسدها ثرى قبرها بعد أن أكل المرض من لحمها ما أبقته أفواه الناس وعندما كشفت عن وجهها قبل أن يغطيها التراب حسب ما استحسنه الشرع الحنيف رأيت وجها ذابلا منهكا من المرض وخصلات شعر مشتتة وفما فاغرا وعينين نصف مفتوحتين تنظران إليّ وتقولان بصوت ضعيف واهن وداعا لدنياكم التي لا مكان فيها للطيبين والسذج أمثالي، أبدا غير مأسوف على فراقكم يا من تقتلون القتيل وتمشون في جنازته يا من تغررون بفتاة قليلة الحيلة والتجربة ثم تجعلونها تدفع ثمن جريمة أنتم من ارتكبها، دائما العصفور الضعيف عندكم مجرم آثم والصياد المعتدي ببندقيته في يده بريء شريف، تتخذون من الحب وهو أجمل ما خلق الله في الكون جسرا لتخدعون به الغافلات العاجزات فتحيلوا ورودهن أشواكا دامية وزهورهن جمرا متقدا، بئس الناس والأهل أنتم غررتم بي صبية وسلختموني حية شابة وقيدتموني في سجل المنبوذين إنسانة وسحقتموني بلا شفقة ولا رحمة.

لتغمرك أيتها المسكينة رحمة ربك التي وسعت كل شيء بعد أن ضاقت عنك رحمة الخلق،،،، .

خيـــريـــه

أيها الحب ويلك، ستحاسب يوما حسابا شديدا على ما عاثت يداك في القلوب الغافلة.

==========

تعودت نساء الأسرة الجلوس بقربها يتحادثن عن حياتهن وأمورهن وبيوتهن وأزواجهن كما شئن إذ طول مرضها ومكثها في الفراش جعلهن ينظرن إليها كقطعة من الأثاث، ولكن قد تكسر القاعدة لوهلة إذا ما قدمت ضيفة ما عليهن لأول مرة لأنها تلاحظ وجودها وسكونها وتسأل قائلة:

– من هي؟ وهل هي مريضة؟
– هي خالتي خيرية شقيقة أمي الكبرى، تقيم معنا وقد مضى عليها قرابة الخمسة عشر عاما وهي على هذه الحالة منذ أن أصيبت بجلطة حادة.
– أيمكنها الحركة؟
– هي لا تستطيع الكلام أو الحركة.
– وما هذه المحفظة القديمة التي تعلقها في رقبتها؟
– لا نعرف ما بها فهي لا تتركها أبدا ولا تنام إلا إذا توسدتها تحت رأسها.
– مسكينة ،،،، وتلتفت للنسوة الحاضرات لتواصل حديثها معهن ثم تنسى وجود خيرية تماما.

وقد تعودت خيرية على ذلك فهي منذ سنوات طويلة على هذه الحالة مستلقية على ظهرها كالمستيقظة النائمة أو النائمة المستيقظة، ولكنها لم تكن وحيدة قط فهي دائما مع لوبي تحادثه وتسمع منه وتبتسم له وتتذكر كل لحظة من عمرها معه.

– بدل ما يحملني للعيادة الخاصة التي عالجت فيها شقيقتي أحلام حملني إلى مستشفى الهواري، قلت لأهلي لا تخبروا أحدا بمكاني وذلك منعا للإحراج، وبقدر ما كانت أحلام تفرح بزائريها وتحدثهم عن العلاج والأطباء ومبلغ الثلاثة آلاف وأربعمائة دينار الذي

دفعه زوجها للعيادة غير التحاليل والأشعات كنت أنا أتمنى ألا يراني أو يسمع بدخولي أحد من معارفنا.

صمت الحزانى موسيقى لا يسمعها سواهم.

تتذكر خيرية عندما كُسرت رجلها كم كانت محل تندر زميلاتها من نزيلات العنبر يضحكن منها ويغمزنها بألسنتهن وأعينهن، كن يسمينه الدلو وينتظرن قدومه ويتظاهرن بأنهن غير منتبهات لما يفعله أو نائمات بينما هو وهي تحت مراقبتهن المباشرة المركزة، آآه يالها من أيام حملوها إلى المستشفى الكبير في طريق الصابري شرق المدينة عند المصلى القديم وغلفوا قدمها بالجبس، كان يجلس بجانبها ويمسك يدها يعتصرها بقوة بين كفيه ويحادثها عن كل شيء وبين الفينة والأخرى يحتضنها ويضمها إليه بشوق أو يختلس منها قبلة عجلى لقد كانت حائرة بين مجاراته في أسلوبه الجسور الذي تعودت عليه والرعب الذي كان يغمرها خوف أن تراها زميلاتها في العنبر أو الممرضات اللاتي تأخرت في معرفة السبب الذي كن يتنادين لأجله ويتكاثرن في عنبرها أثناء وجوده.

- خليني ساكته هو بلية سوداء وليس زواجا، تصوري حتى الذي أتوا به في الفاتحة شيء يحشم هم فقراء بخلاء ولولا ما أحضرناه نحن ليراه المدعوون لأصبحنا فضيحة أمام الناس.

طائر ميت في قفص لا يرفرف ولا يغرد ذاك هو قلبي.

تحفظ خيرية عن ظهر قلب كل جزء من وجهه الذي تحب كل تقاسيمه خصلات شعره النافرة وخديه الناعمين وابتسامته العفوية المرسومة دائما على وجهه وجسمه الغض الفتي وقامته الطويلة النحيفة كالسيف العربي الأصيل ومقالبه التي لا تنتهي، ياله من مخلوق بديع جميل الصورة كالطاووس ناعم في ملمس أناملها كجلد الرضيع أنيق موشى الثياب في ناظريها كطير الوروار الذي يأتي في الربيع ليأكل النحل.
تتذكر عندما جاء والده الرجل الوقور الحازم به إلى منزلهم في حي الكيش أول مرة بعد أن قرأ فاتحتها ليتعرف بأهلها وكم كان مضحكا في محاولاته الظهور أمام أهلها بمظهر الرجل الناضج العاقل كما أوصاه أبوه ومع هذا فقد انتبه لها وهي تنظر إليه من خلف الباب وبجرأة واندفاع ابتسم وأشار لها بحاجبيه ثم أمسك أخاها الصغير فقبله قبلة ذات معنى ونظر اليها مرسلا لها أول رسالة عاطفية تزلزل كل كيانها.

- ليلة الزفة عليك وكسه أمه وجهها مكشر كأنها في عزاء وأبوه يرتدي شلاتيتا مخجله وأهله وأقرباؤه كأنهم لم يروا طعاما طوال عمرهم حاجة تكسف.

تكون الخطيئة عندما لا نعرف كيف نحب.

لقد خلب لبها منذ ليلة الزفاف بلطفه الشديد وأحاديثه الشيقة وغناوي العلم وألفاظ الحب التي يسمعها لها وخروجه عن كل مألوف زمنه ومعتاده فهو يقلد أمامها في حجرتهما الصغيرة أباه في كلامه وأمه في مشيتها ثم يقلد أمها هي في ضحكتها الصاخبة كأنها انفجار قنبلة ثم يدغدغ إبطها بكفه حتى تضحك بصوت عال مرغمة خائفة من استياء والده الذي ينام في الغرفة المجاورة لهما ويتنحنح بنفاد صبر كلما علت ضحكاتهما.

- الشقة قديمة وتحتاج صيانة وخزان المياه صدئ والصالون قديم كان أهله يريدون رميه في الزبالة فأعطوه له، لم يشتر أي شيء جديد إلا دار النوم وهي موضة قديمة عليك طيحه ياربي، أنا نستاهل إلى صدقت كلامه وأحببته.

تتذكر خيرية جيدا أنه لم يكتفِ بكل ذلك بل أخرجها هي أيضا عن ما ألفته وألفه أهل زمنهما فغير أنواع ثيابها وتسريحة شعرها وصحبها إلى الحدائق والبساتين لتشعر بمنتهى الفخر وهو يجلسها ملاصقة له ليتحادثا ويتحادثا ويعلقا على من يمر عليهما من خلق الله، واستضافها في المطاعم وكم كانت منبهرة به وهو يضع يدها في يده ويدخل بها المطعم ويسحب لها الكرسي في مطعم سي خليفه بشارع عمرو بن العاص لتجلس عليه ثم تطلب من سي خليفه ما أرادت من طعام وشراب وإن كان لا يبيع أصلا إلا طبيخة الفاصوليا بالكرشه بسعر 15 قرشا للوجبة.

- مسكينه خالتك قلتِ اسمها ايش؟ أأأ خيرية سبحان كيف تحمل العيش هكذا؟

هنَّ المسكينات وأولى منها بالشفقة،، أما هي فتشعر في قرارة نفسها أنها أخذت حقها من الحياة وافرا وافيا، كان كل يوم من حياتها معه بعشر سنوات من حيواتهن على الأقل، هن لا يعرفن عنها شيئا أما هي فتسمع لهن يتحدثن بجانبها عن حياتهن وما يعترضهن من مشاكل في بيوتهن والتنافر بينهن وبين أزواجهن والنزاعات والخصام والنكد فتشفق عليهن،،، نعم في الحقيقة هن اللاتي يحتجن الشفقة لا هي، ولو تمكنت من الكلام مجددا لما

نطقت إلا بإسم واحد هو: لوبي وجملة واحدة هي: ليست الخطيئة أن نحب وإنما تأتي الخطيئة عندما لا نعرف كيف نحب ،،، ثم خرست من جديد.

– حتى وأنا نافس اضطررت لأن أقضي مدة النفاس عند أمي في منزل أهلي كي تستريح أعصابي وأبعد عن الضغط والتوتر ولا أرى وجوه أمه و أهله، فهم ثقلاء يستغلون أي مناسبة ليتركوا منزلهم ويأتوا للعيش عندنا في شقتنا الضيقة يضايقوننا ويكلفوننا مصاريف وأموالا.

عندما أنجبت ابنتهما البكر ليلى التي تقيم مع زوجها العامل في النفط وأولادها في راس لانوف الآن كان يحضر لها ما تشتهيه من فاكهة وأطايب يخفيها تحت ثيابه حتى لا تصادر على يد الجمارك كما كان يُسمي سكان منزل العائلة الكبير المكون من اشقائه وشقيقاته العزاب اضافة لشقيقين متزوجين وأولادهم وشقيقاته المتزوجات الزائرات لهم باستمرار وأولادهن والضيوف والأقرباء والجيران، إنها لا تذكر أنهم تناولوا وجبة واحدة وهم أقل من عشرين إنسانا كأنهم في مطعم السمكة الحمراء بسيدي حسين لا منزل أسرة.

– آلو نوني مر على ماما لتأخذها من منزل أسرة الحاج منصور قبل أن تأخذني أيضا في طريقك إلى المنزل،، لا تنس.

أنا أتكلم كثيرا ولكنكم لا تسمعونني.

ابنها نويجي خسارة إنه لا يشبه والده على الاطلاق في أي شيء من المخجل أن يكون ابن لوبي على هذه الشاكلة المحزنة لم يرث شيئا من طباع أبيه المتميزة وسلوكه اللطيف لقد فضلت تمضية بقية أيامها عند شقيقتها الصغرى في حي السكابلي وتركت العيش معه لأنه ليس ابن لوبي الذي تمنته أو تمناه لوبي، آآآآآه.

– قلت له: لماذا لا تلبس على الموضة؟ وتشتري لنا سيارة بي إم دبليو نبيتية اللون بدلا من الهونداي؟ وننتقل بالسكنى من دكاكين حميد إلى حي الدولار؟ كل الرجال يفعلون ذلك دبر راسك كل الرجال يفعلون ذلك هل كتب على الظلم والشقاء طول حياتي.

ذلك اليوم المشؤوم عندما علمت أنهم حملوه من محل عمله بميدان شارع كويري في شركة

الحافلات إلى المستشفى كادت تفقد عقلها، دخلت غرفته مهرولة وقلبها يدق بعنف لتجد ذلك الوجه البديع ذابلا بعد إشراق والقوام النشط الرشيق مسجي بلا حراك، رمت نفسها عليه وصرخت وصاحت وبكت فأخرجوها من عنده بالقوة وهي في حالة هستيرية بالغة، ثم اشتد به المرض فمنعوا عنه الزيارة ونقلوه إلى غرفة العناية الفائقة، لم يكن يُسمح لأحد بزيارته إلا أخوه الأصغر رافع الذي كان صديقا للطبيب المعالج فكان يحمل الرسائل بينهما، لم تكن رسائل طويلة متعددة الصفحات وإنما هي ورقة مكتوب بها النوع الوحيد من الشعر الذي كبرا علي أنغامه معا وأحباه وطالما تبادلاه وتناجيا به أيام الصفاء والعافية وحتى ساعات الخصام، إنه غناوي العلم تلك المنظومات الأدبية الرائعة التي صاغها المبدعون الأولون بلسانهم العامي وثقافتهم البدوية الأصيلة نمطا شعريا بليغا في كلمات قليلة معدودة معبرة ضمن بحور وأوزان وأنماط صارمة دقيقة لتختزل في جوفها حكمة ومعان وتجارب انسانية عظمى.

اسمعي يا خيريه قال رافع والعبرة تخنقه ووجهه أسود من شدة الحزن: جهزوا أنفسكم ستخرج الجنازة من منزلنا وسيأتي الناس للعزاء إني ذاهب الآن لشراء ما يلزم وإتمام بعض الاجراءات سيكون الدفن بعد صلاة العصر، لا حول ولا قوة إلا بالله.

- الو انتصار أنا فريحه ،، أكلمك من المرج ،، البركة فيك صحيح قالوا خالتك خيريه توفيت الله يرحمها والله لقد وجعتني وتأثرت لها كثيرا عزيلي أمك وأهلك حتى نأتيكم اليوم للعزاء.
- فعلا توفيت رحمها الله كانت تئن بحزن عميق ظاهر على قسمات وجهها الذابل، ثم بكت بالصوت والدموع لأول مرة في حياتي أسمع صوتها وحركت يديها المشلولتين منذ سنين طويلة بصعوبة وهي تصيح بصوت خافت فضمت محفظتها إلى صدرها بقوة وسقطت فوقها ميتة.
- هل جاء ابنها وابنتها؟ وماذا تركت وراءها؟
- أرسلنا لهم نبلغهما، وعلى ما أعلم فإنها لم تترك وراءها إلا محفظتها ومنذ أن وعيت على الدنيا وأنا أحاول أن أعرف ما في هذه المحفظة، فكان أول شيء فعلناه بعد وفاتها رحمها الله أننا فتحناها كنا نظن أننا سنجد بها مالا أو طابوات عقارات تصوري لم نجد بها إلا صورة رجل لا أعرف من هو ورسائل متبادلة بينها وبين رجل اسمه لوبي بها غناوي علم.

- غناوي علم ،، يبدو أن خالتك كانت خطيرة وأنا التي كنت أحسبها طيبة، ياما تحت السواهي دواهي، اسمعيني هذه الغناوي تعرفين أننا في المرج مختصون فيها.
- انتظري حتى أفتح المحفظة، هاهي اسمعي الرسالة الأولى: **{تذوح في عقاب الدار تلقى عزيز هايال بالها}** هذه من خيريه إلى لوبي.

وأخرى رد عليها من لوبي إلى خيريه **{جبيت والعيون معاك ياعزيز فيك يوادعن}**.

وأخرى من لوبي أيضا يسألها عن شدة بكائها وجزعها وعدم صبرها عند زيارتها الأخيرة له فترد عليه بهذه **{يكساها ضباب تحوس العين وين لوهامك تجي}** .

ثم رسالة من لوبي **{مستوحيات ياس طويل لانظار في عزيز يوادعن}** .

وترد خيريه **{علي غلاك نين تموت العين ياعلم بات رايها }** .

ثم آخر رسالة من لوبي تقول: **{حتى في شراق الموت غلاك ياعلم هو شهادتي}** .

وترد خيريه **{وريني بعد لاولاف انت زهاك ياعين ايسمه}** .

ثم بعض غناوي في ورقة واحدة معا يبدو أنها لم ترسلها إلى لوبي ومع هذا فهي ضمن مجموعة الرسائل، اسمعي:

{يبدل غلاك بصبر المولى إللي ياسك كتب} والأخرى **{قزونه العين قعدت عزيز كان بوها وامها}** والأخرى **{صبرن ياعزيز سنين اللي قبل يوم ايكيدهن}** .

وأعجبها آخر واحدة فيهن إذ يبدو أن خالتي كتبتها يوم اصابتها بالجلطة، مؤكد قبل اصابتها بالشلل بقليل تقول فيها **{في الماقي عقاب نضيح كباتا عزا فيه وانعمت}** .

- من هو لوبي؟ وما قصتها معه؟ هل هو زوجها؟ أو ،،،،؟
- الذي أعرفه أن اسم زوجها كان عبد الباسط ولم يدم معها طويلا إذ توفي بعد ثلاث سنين فقط من زواجهما، ورفضت هي كثيرين جدا تقدموا للزواج منها بعده فقد كانت آية عصرها في الجمال والذكاء وصورها القديمة موجودة عند أمي، قالت لنا أمي أنها حاولت كثيرا اقناعها بالزواج مجددا وهي ترفض وأمي تلح عليها حتى قالت لها مرة:

{فدا عزيز موميجود كبير جا علينا فاهقه} وانهارت بالبكاء فتوقفت أمي عن الخوض معها في الموضوع بعدها مراعاة لمشاعرها.

- طيب مع السلامة الآن سنكون عندكم بعد العصر إن شاء الله .

عيـــــد

الأعياد حلبة ضيقة تتصارع فيها الأحزان والأفراح، والويل كل الويل لمن تفوز أحزان العيد عنده على أفراحه.

===========

يخرج منصور لزيارة قبر والده كعادته كلما اشتدت عليه وطأة الحياة وضاقت عليه الأرض بما رحبت إنها عادته يقرأ الفاتحة على والده ثم يحدثه بما عنده ،، كما كان يفعل معه عندما كان حيا ،، كم يفتقد والده ،، وكم يأسف أنه لم يعرف قيمته بحق إلا بعد أن فقده.
إنه يحفظ الطريق داخل المقبرة إلى قبر أبيه بمنتهى الدقة يعرفها ولو كان مغمض العينين من كثرة ما زاره مرارا وتكرارا، هاهو يقرأ الفاتحة ويقول:

- السلام عليك يا بابا ورحمة الله وبركاته الله يرحمك ويغفر لك ،، تصور ماذا أصبح العيد بعدك لقد أصبح مصاريف وأموالا والتزامات مرهقة ،، رحم الله أيامك الرخية الهنية عندما كنت تحضر لنا الثياب والأحذية وشاة العيد بيسر وسهولة وما علينا إلا أن نطلب لم نكن ندري مقاساتك وتعبك حتى ذقنا الأمر بأنفسنا سامحنا يا بابا.

شاة العيد مرة كالعلقم بلا أحبابك حولك.
اليوم ملابس وأحذية جديدة للأولاد وأمهم والبنات وآآآه على ملابس البنات بدلة الفتاة الشابة لا تقل بحال عن 50 دينارا وخروف العيد صغير الحجم قليل الوزن لا يكاد يفي بشروط الأضحية الشرعية بنحو 250 دينارا على الأقل ولوازم منزلية في هذه الظروف الصعبة والغلاء المتزايد والمرتب بالكاد بعد الزيادات الأخيرة التي قابلها غلاء أضعافها يفي بالضروريات.
ويسرح بذهنه شاردا ينظر في شواهد قبور المقبرة والأشجار تظللها والسكون الأبدي يعمها، ترى ما الذي يظهر هناك ،،، إنه رجل أنيق الهندام وجيه المنظر مهاب الطلعة قد جاوز السبعين يحتضن شاهد قبر بمنتهى الحب ،، ياله من منظر غريب ،،، ويمشي نحوه.

- السلام عليكم السماء ابتدأت تمطر يا حاج لعلك تحتاج مساعدة ؟

ويمسح الرجل بقايا دموع في عينيه اختلطت برذاذ المطر ويرد:

- وعليكم السلام ،، شكرا بارك الله فيك.

ويجلس منصور قربه ينظر إليه متعجبا لا يتحادثان، فاضطر لقطع حبل الصمت بينهما قائلا:

- كنت أنوي الذهاب إلى سوق السعي ولكن المطر أخرتني وأبقتني في المقبرة عند قبر أبي.
- لتشتري شاة العيد؟
- نعم،،،
- كل عام وأنت بخير،،.
- أنا آتي هنا كثيرا لزيارة أبي رحمه الله وهذه المرة الأولى التي اراك فيها ،، اسمح لي تطفلي، هل هذا قبر أبيك أيضا الذي تزوره؟
- لا هذه مريم.
- مريم ،، قالها منصور بفضول ظاهر: هل هي أمك أو قريبتكم؟
- في الحقيقة هي كانت خطيبة أخي الأكبر وكنا نتزاور ثم بعد وفاته في حادث سيارة غابت عنا مدة ثم أتت لتعيش معنا هي وابنها بعد أن هجرها زوجها إلى أن توفيت شابة لم تتجاوز السابعة والأربعين ربيعا رحمها الله.
- هل طلقها؟
- لا تركها وذهب في حال سبيله ،،، كانت امرأة عظيمة غيرت مجرى حياة حيًّا كله وبثت فيه الحياة وجعلت له قدرا ومكانة بين الناس ،، أما نحن خصوصا فقد ساعدتنا كثيرا ثم اقترحت علينا أن نفتتح مطعما وكانت هي وصديقتها أختي سليمه تعدان الوجبات الشهية التي أقبل عليها الزبائن بشراهة حتى تيسرت حال الأسرة واشترينا منزلا وعشنا فيه معا، كانت مريم من النوع الذي إذا رأيته دخل قلبك، الجميع كان يهمه رضاها ويسعى لخدمتها، كانت هادئة الملامح طويلة القامة نحيفة طيبة، ناعمة أصابع اليدين لقد كنت أتعمد مصافحتها منذ وأنا طفل صغير من شدة اعجابي بكفيها وقد أخبرها أخي خطيبها رحمه الله بهذا السر فكانت تضحك مني ثم تعطيني كفها الطرية ألهو بها كيف أشاء ،،،،

وانهمر الرجل ببكاء صامت يخض جسده كأن تيارا كهربائيا يصعقه.

- وأين ابنها؟ سأل منصور في محاولة لإخراج الرجل من حالة البكاء الحادة التي اجتاحته.
- ذهب في حال سبيله وانتقل إلى البريقه ليعمل هناك في البترول.
- على كل حال لديك أختك سليمه تؤنسك بعدها والموت على العباد حق.
- هاهو قبر سليمه إنه الذي يليك مباشرة.

وشعر منصور بالحرج إذ تسبب في تقليب كل هذه المواجع على الرجل ،، فقال مستدركا بأسلوب ضاحك:

- العيد على الأبواب يا رجل وزوجتك وأولادك في انتظارك لتنتقموا من اللحم المشوي أشد الانتقام.

فازداد الكرب على وجه الرجل وقال وهو يتنهد كأنه ينفخ نارا من صدره: محظوظ الذي عنده من يشتري لهم شاة العيد.
وانقبض قلب منصور من إجابة الرجل، ولم يجد إلا أن يسأل:

- ماذا تعني؟
- اتفقت و زوجتي على الطلاق بعد أكثر من تسعة أعوام من الزواج لم ننجب خلالها وتزوجت هي بعدي وأنجبت وقد توفيت رحمها الله منذ عامين تقريبا، إنها صاحبة ذلك القبر الملاصق لمريم، لقد صرت أكره الأعياد لأنها تقتلني بالوحدة وتغمرني بالأحزان، ليس في داري من أشتري له ثياب العيد أو يأكل معي الأضحية، وعبثا ذهبت محاولاتي قضاء العيد مع هذا القريب أو ذاك إذ ما كانت تزيدني إلا ألما ومرارة، فتخليت عن ذلك منذ زمن بعيد وفضلت أن أغلق باب بيتي مكتفيا بأوجاعي وآلامي، إنني لا أشتري شاة العيد لأن لحمها مر في الحلق كالعلقم من دون أحبابي يلتفون حولي.

وبدافع الشفقة ومحاولة إسعاد الرجل الذي يكاد الهمُّ يصرعه أرضا قال منصور مظهرا المزاح:

- لا تقل لي أن رجلا بشخصيتك الطيبة لم يجد أرنبا واسعة العينين للزواج منها بعد المرحومة.
فسرح الرجل بعيدا طويلا ثم تنهد بحرارة وقال كأنه يقرأ من كتاب أمامه:
- الحقيقة إنني تعرفت بامرأة فاضلة وقد حاولتْ المسكينة كثيرا هدم أسوار تفصلنا عن بعضنا البعض حتى أنني كنت أرثي لها شفقة وعطفا وقد حاولت التجاوب معها كثيرا فلم أستطع ،، كانت تنفخ في الرماد إذ أنني كنت انتهيت قبلها بمدة ولم يبق الدهر مني إلا جسدا ميتا يسير بين الناس على قدمين، والموتى لا يصافحون الأحياء.

واسترسل الرجل: نظرتْ إليَّ ذات مرة وكنتُ غارقا في همومي التي أدمنت الغوص فيها منذ تعودت إيداع أحبابي الثرى الواحد تلو الآخر وصارحتني وقد فاض بها من كثرة ما حاولت بعث الحياة في جسدي من جديد:

- هل هناك أحد في حياتك ؟
- فقلت: بلى هناك كثيرون عشرات وعشرات في الحقيقة إن مشكلتي هي كل أولئك الذين في حياتي يأبون مغادرتها.
فقالت وقد وعت مأساتي:
- لعل الوقت لم يفت وبإمكاننا أن نعيش حياتنا معا ومع الآخرين أيضا.
- فقلت لها محذرا: لا تقعِي في حبي من فضلك فلسنا أنا وأنت سوى رجل وامرأة يقفان في محطة مهجورة ما عادت تمر بها الحافلات.
- فقالت بمنتهى الطيبة والوداعة: أنا راضية بنصيبي ،،،،
- قلت: ولكنني من عالم آخر غير عالمك لقد جعلتني الهموم أكبر منك بمئات السنين أنت أشبه ما تكونين بطفلة تمشي مع جدها العاشر.
- فقالت بوضوح وإصرار: هل بي عيب؟

فتقطعت كل قيودي فجأة مرة واحدة، وبلا سابق إعداد وجدتني أقول لها وسط ذهولي:

- نعم عيوبك كثيرة ،،، ،، ،،، عيبك أنك تركتني لهمي وأحزاني زمنا طويلا حتى يئست ويبست ثم جئتِ ،،، عيبك أنك أتيت متأخرة ،، لماذا لم تقابليني منذ زمن؟ لماذا ،،،

عيبك أنك لم تردي على نداءاتي طوال أعوام وحدة أكلني فيها الجليد ،،، عيبك أنني أستكثر امرأة بطيبتك وجمالك وأناقتك على تعيس مثلي ،،، عيبك أن كفيك ناعمتين بضتين كمنديل من حرير مطرز الحواشي بورود تحملانني قسرا إلى عهد جميل عشته يوما ،،، عيبك أن فيك كل ماتمنيته في فتاة أحلامي التي انتظرتها طوال عمري ورسمتها بصبر في مخيلتي طوال سنوات وحدتي الموجعة ليلة بعد ليلة عيناك عيناها شعرك شعرها قوامك قوامها كلامك كلامها ،،، عيبك .... .

فوضعت يدها على فمي وقاطعتني مبتسمة، وقالت: ها قد نطقت أخيرا ياجبل الثلج، غدا نقرأ الفاتحة.

- لا زلت أذكرها حين قبلتني لأول مرة في خدي قبلة خجلى استغرقت ثانية أو أقل وإن كنت عشت بها نعيما لا يقل عن ألف عام لقد رأيت الجنة وحورها ونعيمها وأنهارها في تلك الثانية وفهمت للحظة واحدة كل ما كتبه الأدباء وعزفه الموسيقيون ونظمه الشعراء ورسمه الرسامون وغناه المغنون لقد كاد قلبي يتوقف عن النبض بل خلته طار من صدري إلى السماء،، .
آآآه ، النساء نوعان نوع يسعدك بصحبته ويشقيك إلى الأبد بفراقه، ونوع يشقيك بصحبته ويسعدك إلى الأبد بفراقه ،،، ولسوء حظي كانت تلك المرأة من النوع الأول وكُتب عليَّ أن أشقى بفراقها إلى الأبد.

وسكت الرجل هنيهة يلتقط أنفاسه اللاهثة، لقد كان من الواضح أنه يعيش كل حرف ينطق به بل كان يتحدث إلى نفسه لقد نسي وجود منصور بالكامل قربه، ثم واصل حديثه كأنه يقطع كل كلمة بسكين حادة من كبده:

- وتزوجنا وظننت أن الدنيا التي عودتني أن تعطيني ملعقة عسل ثم تلحقها بقناطير من أشواك كالإبر وحنظل مرير محملة على ظهر شاحنة ضخمة بالجرار قد أشفقت عليَّ أخيرا وقررت أن تتركني أعيش كباقي خلق الله ،،،، وقضيت معها أجمل أيام عمري البائس كنت أصحو على السعادة وأنام عليها ،، في الحقيقة لم تكن مطالب رجل شقي مثلي من الدنيا كثيرة كنت راضيا كل الرضا بأن أصطبح على وجه تلك المرأة في النهار وأتأملها في الضحى وأمسك كفها النضرة لأنام هانئا وهي في يدي في المساء ،،،

حتى يوم قررت هي فيه أن تذهب لأداء فريضة الحج مع أخيها ولا أدري لماذا خفت وارتعبت وإن لم أبد لها ذلك كي لا أفسد عليها فرحتها وهي التي طالما حلمت بالحج لبيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكنت أحضنها بمنتهى القوة حتى أكاد أكسر عظامها الرقيقة بل أكاد أقطع أنفاسها من شدة ضمي لها لا أريد تركها تتفلت من بين يدي خوفا من مجهول ما أفرحني يوما واحدا، وهي تضحك مني وتقول:

– كن صلبا يامُتعب هي مدة قليلة ونلتقي مجددا.

ترى أيهما وجد أولا التعاسة أم الموسيقى؟

وسافرت في مثل هذا اليوم تماما على أول فوج متجه إلى بيت الله الحرام بالطائرة لأداء فريضتها ،، وأقلعت طائرتها عائدة بها من مطار جده بعد وقوفها على عرفة بإحدى عشر يوما إذ كان العشرين من ذي الحجة وبقيت أنتظر في المطار قدومها بلا جدوى إذ لم تأت قط لا هي ولا ابني الذي حلمت به طوال عمري الذي كان في جوفها في شهره السادس وشاء الله سبحانه أن تسقط طائرتها هي بالذات دون كل حجاج بيت الله الحرام في قرنادة بالجبل الأخضر على مسافة قريبة من مدينة البيضاء، وعاش من كتب الله له الحياة من ركابها وتوفيت هي فيمن توفوا عليها وعليهم رحمة الله ،،، ياآآه كان ذلك اليوم الأسود يوم فقدها المشؤوم الجمعة 2/ 12/ 1977م.

مستقبل بعض الناس للأسف هو تكرار لماضيهم.

وسكت المسكينُ وقد قبض اليأس قلبه ونال الإحباط وخيبة الأمل منه كل مأخذ من هول ذكرياته التي تخنقه بيديها القاسيتين والتي لن تتركه حتى ترديه قتيلا وهو ينظر بعينين حزينتين ذابلتين بهما كل أسى الدنيا وآلامها إلى شاهد القبر الذي رآه منصور يحتضنه أول ما شاهده من بعيد.

– أما منصور فقد ذهب بخياله إلى داره وزوجته وبناته وأولاده الكبار وهم يذبحون أضحية العيد وأطفاله الصغار وهم كالورود اليانعة في ملابسهم الجديدة وأحبابه وأقربائه وأصحابه وجيرانه يصافحونه ويتبادلون معه المعايدة ،،، منذ قليل كان غاضبا من العيد ضائقا صدره من مصاريفه والتزاماته وهاهو الآن يحب العيد وبهجته ويستهين بالغالي والنفيس في سبيله ،،، والتفت ليهوّن على الرجل مصائبه ليجده قد نهض وأخذ يمشي الهوينى وعلى ظهره كل هموم الدنيا والأسى يغمره من أعلى رأسه

إلى أخمص قدميه تحت رذاذ المطر إلى باب المقبرة ،،، لقد داوى هذا الرجل علته من حيث لا يدري ،،،، فلحق به قائلا:

- هل تحب أن أوصلك إلى أي مكان أو أقدم لك أى خدمة ؟
- شكرا ،، بارك الله فيك.
- نسينا أن نتعارف أنا منصور وأنت يا حاج ما اسمك؟
- عيد ،،، اسمي عيد.

الجدار الناقص

في باطن كل واحد منا مرآة صقيلة لامعة تعكس بمنتهى الدقة ليس فقط ماضينا كله بل وحاضرنا وحتى مستقبلنا في شكل دفقات قادمة من الغيب نسميها الرؤي، ولكن لهذه المرآة حواش حادة قاطعة أمضى من حد الشفرة شديدة القوة وبإمكانها أن تؤذينا، وما لم نحصن أنفسنا ضدها فلها ألف طريقة وطريقة تستطيع أن تفتك بنا بواسطتها.

===========

رغم أن سجن الأحزان لا أسوار عالية حوله إلا إن أحدا لا يستطيع الفرار منه.

{} رؤيا

تدخل من الباب امرأة متحجبة أكثر من الأربعين عاما بقليل طويلة القامة نحيفة البنية إلى حد الهزال يبدو علي وجهها الشاحب أثر التعب والإرهاق.

- السلام عليكم .
- وعليكم السلام ،، تفضلي قلتِ أنك تريدين رؤيتي.

وتنتاب المسكينة نوبة أنين وبكاء خافت تخنقها وتهز جسدها الناحل المتعب بقوة، ثم تقول:

- عانيت كثيرا في حياتي التي ليست إلا مسلسل شقاء طويل وكد وتعب ،، كل حياتي كنت ضحية سوء المعاملة والظلم من أشقائي أقرب الناس إليّ، كنت سجينة بينهم وهم السجان الذي لا شغل له ولا شاغل إلا التحقيق معي علي كل كلمة أو لفتة أو عبارة أو رنة هاتف أو طرقة باب أو فتح نافذة بإرهابي وتعذيبي وإصدار الحكم ضدي بأذيتي دائما ثم صفعي علي وجهي وركلي علي جسدي قائلين: (وريها الضي توريك الظلام) وأنا أبكي وأتألم ولا من ناصر ولا مجيب.

ثم معلماتي وزميلاتي في المدرسة عندما كنت طالبة اللاتي طالما استهزأن بثيابي وسخرن من منظري وضعف استيعابي للمواد المقررة، ثم من ذلك الرجل الذي أحال حياتي جحيما نيرانه لا تخبو ولهيبه لا ينطفئ أعني زوجي الذي لم أر منه منذ عرفته إلا القسوة والكلام الجارح والاستهانة بكرامتي أمام القريب والبعيد لكم تمنيت أن يهتم بي كما يهتم بسيارته علي الأقل أو يعاملني كشاة يربيها أو بقرة يحلبها أو حتى يشكرني مرة واحدة ولو همسا علي خدمتي له ورعايتي بيته.

لكم أكره مناسبات الزواج والأفراح بعد أن صرت أري كل زوج جبارا مثله وكل زوجة ذليلة تعيسة مثلي ،، لا يهم الله يسامحه ،،، حتى أولادي الذين ولدتهم من بطني وسقيتهم من حليب أمومتي الصافي يكون الواحد منهم متعة لي ومصدر سعادة وفرح إلى أن يكبر ويري ما يفعله بي أبوه وقدري المهدور في الأسرة ومكانتي في المنزل التي لا تزيد عن مكانة الكلب الأجرب فينقلب رأسا علي عقب لكأنه كُتب علي جبيني أن تطاردني لعنة الشقاء ويتحول إلى ابن عاق قاس لا يتورع عن اهانتي والإساءة إلى، ومن شابه أباه فما ظلم.

آسفة أرجوك أن تعذرني فأنا لست هنا لأزعجك بقصة حياتي ونكد معيشتي لأنني تعودت عليها على كل حال ورضيت ما فيها وكنت إلى عهد قريب أعيش حياتي كباقي خلق ،،، حتى تلك الليلة المشؤومة السوداء منذ ثلاثة أشهر تقريبا عندما ابتدأت تلك الرؤيا المفزعة تراودني وتعاودني وتلاحقني لتتركني متفكرة فيها مرعوبة منها طوال اليوم خائفة من قدوم الظلام، فما أن يبتدئ قرص الشمس عند المغرب في الاحتجاب حتى أصاب بالهلع والفزع لأبكي خائفة من ساعة يأتي فيها أوان النوم لا محالة متحايلة بالسهر علي مسلسلات التلفزيون وبرامجه المسائية ليوم أو اثنين ولكنني أسقط في النهاية رغم كل المحاولات والتوسلات صريعة النعاس في خاتمة المطاف لأستيقظ وأنا في أشد الرعب علي هذه الرؤيا المفزعة التي زادت سواد عيشتي وأحالت حياتي سعيرا لا يُطاق.

أيتها الشمس في غروبك شقوتي ليتك لا تغربي.

- ما هي هذه الرؤيا التي فعلت بك كل هذه الأفاعيل، حدثيني عنها ولا تتركِ شيئا ولو كان تفصيلا صغيرا؟
- حسن ،، سأخبرك بها رغم فراري من تذكرها وكرهي لسيرتها ،،، أرى نفسي أتجول وحيدة خائفة في منزل أشعر في الرؤيا أنه ملكي ولكنه كبير وقديم الطراز والتصميم والهندسة بحيث يكون ربما بُني منذ خمسين عاما علي الأقل يتكون من عدة غرف ومداخل ونوافذ وأجدني أتدبر طريقة لتطويره بسد بعض أبوابه وفتح أخرى وهدم بعض جدرانه وطلائه، ولكنني أسمع صوت همس وغمغمة غير واضحة الألفاظ من إحدى الحجرات فأفتح بابها لأجدها تتكون من ثلاثة جدران فقط إذ الجدار الذي يفترض أن يكون قبالة الباب الذي دخلت منه لا وجود له بحيث يمكن الخروج من الحجرة إلى

الخلاء مباشرة، والحجرة خالية من الأثاث ومن كل شيء سوى مرآة دائرية معلقة في أحد الجدران وامرأة لا تبتسم ولا تتكلم وإنما هي صامتة جامدة الملامح بلا أي تعبير علي وجهها المألوف لي جدا والذي أتبينه بوضوح تام وأعرفه حق المعرفة ولكنني لا أعرف من هي ولا أدري أين عرفتها أو كيف أو متى، كما أنني لا أستطيع أن أحدد اسمها رغم معرفتي الأكيدة لها تمسك بكفها اليمنى مفتاحا وتمسك بكفها الأخرى كف طفلة أكبر من العاشرة بقليل تنظر إليَّ هي الأخرى بنظرة جامدة خالية خاوية ميتة لا حياة فيها وتناديني باسمي: ،،،، ثم تمد يدها لي وتشرع في ترديد عبارة واحدة بلا توقف وبنفس النبرة والوتيرة كأنها شريط في جهاز تسجيل قائلة: {أنا عطشانة اسقني}، فأتيها مسرعة وكلي شفقة عليها وحنانة ونيتي أن أحضنها وأساعدها ولكنهما المرأة والطفلة تتأخران عني إلى الخلاء عبر الجدار الناقص لتبقي المسافة بيننا ثابتة لا تتقلص وأنا أسير نحوهما وأعجز عن الوصول إليهما إلى أن بلغتا رأس مرتفع عال فالتفتا نحوي ونظرتا إلي، كل ذلك والطفلة لم تتوقف عن ترديد استغاثتها المرعبة تلك ثم قفزتا معا إلى الهاوية وأنا في أشد الخوف والهلع أرتعش وأبكي وأصيح طالبة العون والنجدة حتى وصلت إلى المكان الذي قفزتا منه لأجد الطفلة متعلقة بعرف شجرة وتمسك ثوبي تشده بقوة وتجذبني لأقع معهما في الهاوية أما المرأة فإنها ملقاة علي الأرض تتخبط مضرجة في دمائها، أما المفتاح الذي كان في يمناها فأجده قد انتقل ليكون في كفي الشمال وسط حيرتي إذ لا أعرف كيف انتقل إليَّ منها.

- أنا متأكد من أنك تعرفين المرأة وإنما تحاولين تجاهل ذلك لخوفك الشديد مما رأيت ،، أرجوك تذكري وانظري فيها جيدا بشجاعة لا تخافي فأنا بجانبك وتعرفي عليها.
- ،،، آآآاه عرفتها أنا أعرف من هي ،، إنها أنا إنها أنا، يا سيدي الشيخ هي أنا بشحمي ولحمي ملقاة علي الأرض مهشمة الأعضاء ميتة ودمي ينزف حتى الثوب الذي أرتديه في الرؤيا عرفته لأنني أنا التي اشتريته وهو أجمل ثوب عندي وهو الذي أرتديه في المناسبات وأمام الضيوف، المشكلة أن تلك الطفلة الملعونة لا أزال أراها واقفة عند رأس جثتي النازف وتردد بلا توقف استغاثتها المخيفة {أنا عطشانة اسقني}، لقد أصبحت عبارتها وصوتها ملازمين لي ليلي ونهاري لا يغادران سمعي مستيقظة أو نائمة.
- اهدئي ،، اذكري الله {**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**} ،، أتستطيعين وصف الطفلة؟

- إنها ليست طفلة رغم حجمها وصوتها اللذان يبدوان كحجم وصوت الأطفال فوجهها شيء غير واضح المعالم ومن الصعب وصفه ،، أشعر انها مخلوق كريه يثير الاشمئزاز يظهر في صورة طفلة بريئة.

سلطانه القاهر جعلني حشرة تُسحق بالأقدام.

{}{} ورؤيا أخرى

- الذي أراه ليس حلما عابرا أرآه كباقي خلق الله ثم يمضي لحاله وأنساه بل هو عالم آخر أعيش فيه وأنا واع مدرك لنفسي وما حولي، المضحك في هذه المأساة وشر البلية ما يضحك أنني كنت في البداية أتحين الفرص لأتمدد علي الفراش أو أجلس منفردا لأستجلب هذا العالم الأخر الذي يتشكل كما أريد وأعيش فيه كما أتمنى، كنت في البداية أحب الرؤى وأنتظرها بفارغ الصبر وأتمناها عندما أوي إلى فراشي مساء ولكن ومع مرور الوقت صارت مدة الرؤيا تطول أكثر وأكثر، ثم صار هذا العالم الآخر مع مرور السنين هو الذي يأتيني عنوة وغلبة من دون أن أستجلبه أو أستدعيه ويفرض نفسه عليّ حتى صار هو المسيطر بل هو الحقيقي ففقدت صلتي بعالمكم مفضلا العيش في عالمي هذا.

ولكن بعد مدة من ذلك صار الأمر يخرج عن إرادتي ولم يعد ذلك العالم يتشكل كما أشأ وإنما صار هو الذي يتشكل كما يريد هو ليكون في غالب الأحيان كابوسا مريعا مفزعا، وأنا الآن ما عدت أدري أين مكاني الذي أقف فيه ،، هل أنا في عالمي أم في عالمكم، وهل أنت نفسك من رجال عالمي أم من رجال عالمهم ،، لقد تداخل العالمان عندي وما عدت أعرف كيف أفرق بينهما، وفي أيهما أكون وعاجز عن الخروج من هذا البئر المظلم الذي حُكم علي بالعيش فيه.

- وماذا تري؟ حدثني عن هذا العالم الذي تراه.
- في البداية كنت أري عالما جميلا كله راحة واطمئنان وأماني تتحقق وآمال تتجسد وكنت أعيش فيه كأنني امبراطور كل شيء طوع يدي ورهن إشارتي وكل ما أريده أجده، ولكن بعد سنوات تغيرت الأمور لتتحول إلى كارثة بكل معني الكلمة، وصارت الكوابيس الرهيبة هي محور حياتي.
- ما الذي صرت تراه؟ أو تجبر علي رؤيته بلفظ أصح؟ أخبرني عن آخر ما رأيت من ذلك.

- آخر ما رأيت أنني أسكن منزلا غير منزلي وأمشي مسرعا بقوة واندفاع مرتديا ملابس قذرة بالية ملطخة كأنني أهرب من شيء أقوى مني له مطلق القوة على أن يذلني ويقهرني ولا أستطيع له رداً، وهناك صوت رجل يناديني قائلا:

ياحاج حسن ،، ياحاج حسن ،، ورغم أن اسمي ليس حسن وإنما هو ،،،،، إلا أنني أقف وألتفت إليه ليصافحني بحرارة ويعانقني كأنه صديق حميم ثم يتكلم معي براحة تامة.

- وبماذا يحدثك؟
- يحدثني عن نيته شراء دكاني في السوق عارضا مبلغا من المال.
- وهل توافق على البيع؟
- أنا لا أملك دكانا أصلا لأبيعه له، لذا لا أجيبه بكلمة واحدة وإنما أمسكه من يده فينقاد لي بمنتهي السهولة وأرجع به إلى المنزل وأجلسه علي كرسي في حجرة وأوصد عليه الباب بالمفتاح وأتركه وأجري بسرعة لخارج المنزل، ولكنني أجده في الشارع يمشي بجانبي ويحدثني عن نيته شراء دكاني بالطيبة أو القوة، ثم يبدأ في ضربي بعصا غليظة في يده بقسوة وهو غير مبال بما يفعل وأنا أستغيث بالناس المارة لإنقاذي منه ولكنهم لا يأبهون، ثم يجرني من يدي إلى المنزل حيث تستقبله زوجتي بترحيب شديد ولا تهتم لبكائي وصياحي وأثار الضرب والدماء علي وجهي وجسمي وإنما تقدم له الشاي والمرطبات كأنه عزيز غال، وأنا ملقى علي الأرض في منتهى الذل والقهر وهي تنظر إلى بلا مبالاة كأن شيئا لم يحدث، أما هو فعيناه كجلاد ظالم ينظر إلى مسجون عنده فاقد الحيلة ليتمم تنكيله به.
- صف لي هذا الرجل.
- إنه لا يشبه أحدا من الناس فهو إما طويل وإما قصير وأحيانا بدين وأحيانا نحيف وهو أصلع ربما أو كثيف الشعر، الحقيقة أنني لا أستطيع وصفه لأنه لا وصف ثابت له الشيء الوحيد الثابت فيه هو صوته المسيطر وقدرته المطلقة على أن يفعل بي ما يشاء، وأنا لا أستطيع الخروج من دوامة هذه الرؤى المفزعة وهناك ما هو أشد وأقسى مما حدثتك به منها.
- مثل ماذا ...
- إنه أمر مخجل حقا ومن الصعب الحديث عنه ،،
- لا تخف قل كل ما عندك ،،،

{}{}{} ورؤيا أخرى

- ،،، أرى في الرؤيا نفسي أنظر إلى زوجة شقيقي الأكبر نظرات غير مؤدبة وهي تبادلني نفس النظرات ثم تتطور علاقتنا حتى أننا نتفق علي قتل شقيقي والزواج من بعده ولكن يكتشف شقيقي الموضوع ذات ليلة باردة ممطرة بغزارة ويثور وينشب بيننا شجار عنيف بالأيدي ولم أقصد ايذاءه بهذا السوء ولكن تخرج الأمور عن السيطرة فأدفعه بقوة فيسقط من النافذة على الأرض ميتا لا حراك فيه، وأخرج أنا بسيارته خائفا مرتعبا لاهثا مرتعشا مشتت الذهن فاقد التوازن مما ارتكبته من جرم عظيم لأصطدم بشجرة وأنا في حالتي السيئة تلك وألقى علي الأرض مهشم العظام نازف الدم وتحضر سيارة إسعاف لتقلني وأشاهد بمنتهى الوضوح وجوه المسعفين والممرضين الذين يحملونني على نقالة ويضعونني في سرير المستشفى ويأتي الطبيب بمعطفه الأبيض ويضع سماعاته على صدره ليتفحصني بعناية وتركيز، ثم ينظر إلى عيني مباشرة ويقول لي:
البركة فيك أنت ميت ،،، وأحس أنني ميت فعلا وأبدأ بالحزن والعويل والبكاء علي نفسي وانقضاء أجلي وأنا في مقتبل حياتي والندم وخوف عذاب جهنم مما جنته يداي الملطختين بدم شقيقي وعرضه يغمرني ،،، استغفر الله ،، استغفر الله ،، اعذرني لا أستطيع الإتمام.
- أنت حقا تعيش مأساة بكل معنى الكلمة، ورغم أنني عاجز عن تصور ما هو أشد عذابا مما سمعت منك إلا أنني أتسأل ،، هل هناك ما هو أسوأ من ذلك في كوابيسك السوداء هذه؟
- نعم ،، وهناك الكثير الكثير مما لا اجروء على البوح به منها لمخلوق في الدنيا.
- تكلم قل ما تشاء ،، فربما يريحك التنفيس عن مكنون صدرك.

{}{}{}{} ورؤيا أخرى

- رأيت مرة أنني أسير في الشارع لأسقط في حفرة وصرخت كثيرا واستنجدت ولا من مجيب ثم نظرت حولي فإذا أنا في كهف مظلم واسع ومددت يدي أتلمس طريق خروجي لألمس في تلك الظلمة الدامسة شيئا ناعم الملمس أدركت منذ اللحظة الأولى أنه ثعبان ضخم جدا فجفلت منه مرتعبا لأصطدم بجدار الكهف ويشج رأسي وينزف دمي بغزارة فتثير رائحة الدم الثعبان فيتحرك نحوي ببطء ثم يأخذ في الالتفاف حول

بدني وعصري بقوة مهولة قيدت يدي الاثنتين وشلت حركتي شعرت معها بعظامي تسحق تحت ضغطه وصدري يتهشم وأصرخ وأصرخ ولكن صوتي لا يصدر ولا يسمعه أحد حتى أنا، ثم التقم بفمه رأسي وشعرت بلزوجة ريقه المقززة تعم وجهي وأنا أنزلق ببطء إلى جوفه شيئا فشيئا وقد انقطع نفسي واسودت الدنيا فلم أعد أرى إلا الظلام الدامس .....

الأستاذه أمينة الفرع

نحن نمشي خلف الأموات إلى المقبرة ولكنهم يمشون خلفنا إلى آخر أيام عمرنا بعد ذلك.

===========

تجلس على مقعد مكتبها الكبير الدوار والهاتف لا يكف عن الرنين بجانبها والملف أمامها لتضع تأشيرتها وتوقيعها على كل مستند فيه بما يلزم، وتراجع بين الفينة والأخرى بعض ملفات متراكمة أمامها فلديها غدا بعض المواعيد الهامة جدا أحدها مع أمين المؤتمر والآخر مع أمين الاقتصاد في الفرع، والمواطنون أيضا لديهم مراجعات ومصالح ورغم تهربها منهم إلا أن يومها لا يخلو عادة من دخول بعضهم لمكتبها وطلب هذه الخدمة أو تلك أو السؤال أو الاستفسار اضافة لمن يحلو لهم توثيق علاقاتهم الشخصية بالمسؤولين والأمناء لتحصيل بعض الفوائد والمميزات أو حتى لإظهار أهميتهم في مجتمعهم.

حتى لو تركنا الماضي فهو لا يتركنا.

الوقت الآن قرابة الحادية عشرة وهي منهكة من دوامة العمل والاتصالات والحوارات والتوجيهات لموظفيها إنه وقت غير مناسب على الإطلاق للحوار مع مواطن ولكنه دخل من الباب وجلس على المقعد ولا مناص من مجاملته والاستماع إليه ففي مدينة مثل درنه يعرف كلُ أهلها تقريبا كلَ أهلها لا تملك إلا أن تفعل هذا.

وتنظر إلى وجهه المستدير وأنفه الكبير وشاربه الكث وشفتيه المميزتين وعينيه العميقتين بلا قرار وجسمه الممتلئ ببدانة لا تخفى لتشعر بسكينة وراحة شديدتين لكأنها تستلقي أمام مكيف في يوم حار إنها تشعر بأنها تعرفه عمرها كله بل كأنه قطعة منها مع شعور قاس بمرارة حزن وكآبة لم تعرف لهما سببا جعلا العبرة تخنقها والدموع تطفر غزيرة من عينيها وتكسو وجنتيها حتى انعدمت رؤيتها من خلال زجاج نظارتها، وتقول بصوت محشرج:

– تفضل يا أخ.

– شكرا ،، تقدم ابن عمي بملف للحصول على قرض بغرض بناء منزل في {انبخ} وتنقصه شهادة المرتب الأخير وطلب مني مراجعتكم واستخراجها منكم لظروف تمنعه من ذلك.

وتأخذ منه اسم قريبه ورقم الملف وتطلبه من سكرتيرتها وتتظاهر بأنها تنظر إلى الورق بينما هي مرتبكة جدا في الواقع ترتعد فرائصها، لأول مرة تتمنى أن يجلس هذا الرجل على كرسيه بقربها إلى الأبد فلا يقوم أبدا.

- حسنا ،، ستكون الشهادة إن شاء الله جاهزة احضر طلبا كتابيا غدا باسم صاحب الشأن وستأخذها في نفس الوقت وأتمنى أن يحصل على قرضه إن شاء الله.
- حسنا شكرا يا أستاذه.

ويصافحها لتتمنى أن تستمر هذه المصافحة مائة عام يدها في يده مستمرة لا تنقطع بل ليتها ترتمي على كتفه لتبكي وتبكي بكاء مرا كالعلقم ادخرته خصيصا لهذه الساعة ولكنه يخرج من مكتبها بهدوء ليتركها تلهث بشدة وقلبها يوجف يكاد يقفز من صدرها كأنها جرت مسافة ألف كيلومتر محاولة تذكر هذه الملامح المريحة والصوت الهادئ المألوف دون جدوى.
ومن دون سبب ظاهر وجدت نفسها ترجع بذاكرتها إلى أكثر من أربعة وعشرين عاما مضت إنها المنطقة المحرمة التي قضت بسببها عامين كاملين تتعالج في بنغازي في عيادات الأطباء النفسانيين وتتناول عقاقيرهم وحبوبهم وتتردد بها أمها على المشايخ يرقونها ويعوذونها حتى استقر رأي الجميع أخيرا على أن دواء العذاب الشافي هو النسيان فأغرقت نفسها في دوامة الدراسة الجامعية ثم مسؤوليات العمل وتولي بعض المراكز القياديه الهامة ثم الواجبات الاجتماعية لتستلقي على فراشها آخر النهار منهكة فتتناول بعض المهدئات والمنومات وتخلد إلى النوم.
لكم عانت كثيرا حتى غطت بئر الآلام النازف في سراديب ذكرياتها بأطنان من التجاهل والأدوية والرقى والتعاويذ، ثم هاهي تفتح أبواب الجراح وتجد نفسها تقتحم لجتها الرهيبة فجأة بلا سابق إنذار لأول مرة بعد تلك الأيام الحالمة ليعصف فؤادها من جديد كأنها لا تزال تلك المراهقة الصغيرة في مدرسة الزهراء الثانوية للبنات.
إنه من زنقة حشيشه حيث تسكن هي، وهي لا تنكر أنها أعجبت به منذ رأته لأول يوم ولكن بقي ذلك الإعجاب سرا دفينا في صدرها لا يتجاوزه، حتى فاجأتها قريبته صديقتها {وريده} ذات يوم التي كانت تتجسس وتنقل لها الأخبار بأنها سمعت حوارا يدور في مربوعتهم بين أشقائها وبعض أصدقائهم معه بعد أن اتضح أنه يحبها بجنون عاصف وشغف قاس لا ينام

الليل ولا يستسيغ الطعام بسببها وأنهم اقترحوا عليه عدة طرق لاستمالة قلبها وغدا سيكون عند بابها بالصدفة أثناء ذهابها للمدرسة ليعرض عليها خدماته إذ يستطيع أن يكلم الأستاذ سليمان المقصبي أستاذ اللغة الفرنسية ليساعدها ويهتم بها ليفتح بذلك باب التعارف معها ومواصلة محادثتها.
وتتذكر كم اهتمت بأناقتها ذلك اليوم واستعارت بعض الثياب الغالية من أختها المتزوجة وخرجت لتجده بالصدفة فعلا أمام الباب وهمّ فعلا بالتقدم لها ومحادثتها ولكن تضرج وجهه احمرارا حتى صار كأنه حبة عوينة حمراء قانية فنظر إليها وعاد أدراجه من حيث أتى.
ورغم فشل الخطة إلا أنها فرحت بما تم وغاصت في بحر من الأحلام الوردية والأماني العطرة، أما الجاسوسة المزدوجة وريده فلم تتوقف عن نقل الأخبار فقد كانت صغيرة السن والحجم بحيث تدخل عليهم لأي سبب فلا يأبه أحد بحضورها بحكم أنها طفلة لا تعي ما يدور حولها.

- شوفي ،،، لقد اتفقوا أمس أولا على أن يمر بجانبك ويقول غناوة علم هي: {**الكبد ياعزيز عليك إن كان موش رقيقه ذايبه**} ولكنه صارحهم بأنه لا يجد الشجاعة لذلك فتقرر أن يكتب لك الغناوة في رسالة يمدها لك اثناء رجوعك من المدرسة.

وقضت يومها في المدرسة تعد الدقائق وتستعجل الحصص وتنظر في ساعتها كل دقيقة وقد أعدت غناوة ترد بها إن تطور الأمر إلى تبادل الحوار هي: {غلاك سر نكمى فيه والجرح في خفا جاير علي} ودق جرس الخروج وانطلقت الفتيات من مدرستهن يحدثن جلبة وضوضاء فهذه تتكلم وتلك تنادي صاحبتها وغيرها مشاغبة تصرخ فرحا بانتهاء الدوام واحدة إلى سيارة أب أو أخ ينتظرها أو حافلة وواحدة تمشي على أرجلها وحيدة وسواها في جماعة وتعمدت هي أن تتأخر عنهن وتعتذر لصديقاتها اللاتي ترجع معهن عادة كل ذلك لإعطائه أكبر فرصة نجاح ممكنة حتى يأخذ الخطوة الأولى التي طال انتظارها لها، وتمر بالصحابة على يسارها ثم تحت أشجار السجل المدني الباسقة وما تبقى من آثار سينما الصيفي ثم المصرف التجاري وأخيرا هاهو يقف أمام باب البريد في زنقة حشيشه يقدم رجلا ويؤخر أخرى مضطربا خائفا وتترك جانب الرصيف الذي تمشي عليه لتمشي بهدوء متأنية على الجانب الذي يقف فيه هو وتبتسم له مشجعة، لولا الحياء لوضعت هي يدها في جيبه وأخرجت منه رسالته بل ليتها تستطيع أن تختصر الزمن وتمسك كفه ليسيران معا إلى

الأبد، وتمر بقربه حتى تكاد تسمعه يلهث وتتملى في وجهه مبتسمة إنها تراه عن قرب للمرة الأولى هو تماما كما تخيلته وسيم الطلعة ببدانة قوام ظاهرة حنون النظرة كثير الأدب والحياء ومن الواضح جدا أنه مستقيم لا تعرف الرذيلة والانحرافات له طريقا ولكنه يحجم عن اتخاذ الخطوة الأولى ليته يفعل ويترك الباقي عليها.
إنها تتحايل لترى وريده كل يوم بل كل ساعة لو استطاعت وأخيرا هاهي تأتيها، وتقول:

- لقد سمعته البارحة يتحدث عن إعجابه بجمال ابتسامتك وهو يظن أنك ابتسمت لـ {صالحه غريبيل} موظفة البريد التي صادف أنها كانت تقف أمام الباب بجانبه، وقد ضاق به الجماعة وتندروا بتخاذله وعجزه، وفيهم من اقترح عليه أن يتكلم معك بالنيابة عنه وينقل لك مشاعره بيد أنهم أعطوه فرصة أخيرة بأن ينتظر حتى تمري أمامه ويقول لك كلمة واحدة هي أنا أحبك ويمضي في طريقه ويرجع في الغد فإن ابتسمتِ له اعتبر ذلك تجاوبا وإلا توقف عن المضي في طريقك.

وبنفس الأسلوب السابق تتأخر في الخروج ليخف عدد الطالبات والمارة في الطريق وتتخلص بمشقة من رفيقاتها اللاتي من الواضح أنهم انتبهن لشيء ما يدور من خلف ظهورهن فللفتيات مقدرة في كشف أدق خفايا هذه الأمور تجعل أذكى ضابط شرطة لا يصلح تلميذا في الصف الأول الابتدائي في مدرستهن، وقد ابتدأن في ترديد كلمات ذات مغزى عن الدلو الذي تمر من أمامه مبتسمة وينتظرها دائما عند البريد في نفس المكان، لكم تتمنى أن يصدق ظنهن ويتحقق كلامهن إنهن لا يعلمن حالها مع الدلو الذي تحبه وتراه وتفرش له الأرض ورودا وزهورا وهو غارق في شبر ماء لا يقدم ولا يؤخر، وتنظر إليه هاهو يقف هناك أمام باب البريد إنها نفس الثياب من الواضح أنها أحسن ما عنده فهي التي تراها عليه دائما وتتنهد:
هيا افعلها، قلها أنت لا تحتاج لكل هذه الرسميات أيها الدلو الغالي فأنا جاهزة كقالب تورته لذيذ ينتظر من يقضمه ومستعدة طوع أمرك لأكون باب سعادتك وهنائك إلى عالم وردي كله راحة واطمئنان وها أنت ترى أنني ما تركت تسهيلا لمهمتك إلا وقدمته فقط قل الكلمة التي طال انتظاري لها كما تنتظر الأرض الجدباء سحابة مطر كما ينتظر طفل عذبه السهر والأرق قدوم أمه الشفوق من بعيد سفر، لا تظنن نفسك أنك أنت فقط الذي تتعذب أنا أتعذب أكثر منك أنا مثل من يرى الجنة بعينه ويشم رائحتها بأنفه وينتظر موافقتك ليدخلها أنا مثل

مريض عليل لا ينام الليل ولا يهنأ النهار ودواؤه عندك في كلمة واحدة قلها بالله عليك واشفني.
ومرت تمشى بقربه الهوينى ببطء شديد ونظرت في عينيه مباشرة كي لا يظن أنها تبتسم لغيره وابتسمت وسمعت نفسه العالي لاهثا ورأت العرق يتحدر منه غزيرا والارتباك يفتك به حتى يكاد يقع على ركبتيه وعلى غير انتظار ولا توقع سمعت صوته ينساب كجدول نهر دافق رقراق يسيل في بستان فيبعث فيه الحياة خضراء مثمرة ،،، واخيرا نطق ،، هي تكذب أذنها لا تصدق ما رأت وسمعت ولكنه قالها لقد قال: أنا ... وصمت وهاهو يلم ما تبقى من أعصابه وما تلاشى من قوته ويستعد ليطلق ساقيه للريح هربا من أمامها لائذا بالفرار كأنه ارتكب جريمة مرعبة وعلى غير وعي منها وجدت نفسها تقف أمامه وجها لوجه تمنعه من الهرب، وتقول: وأنا .... .
وتسمر الاثنان في مكانيهما ينظر كل منهما للآخر غير مصدق فجأة فُتحت أبواب السعادة الخالدة على مصارعها لهما، هي لا تدري كم استمرت وقفتها تلك ولكنها تدري أنها تمنت ألا تزول تلك اللحظة وتدري أيضا أن كل شيء حولها سكن وصمت إذ تجمدت السيارات والمارة والطيور والقطط حتى الريح يبست مرة واحدة لقد تحول كل المكان إلى صورة فوتوغرافية ملونة ثابتة لا حركة فيها.

لو كنت أيها الحب رجلا لتقربت بدمك إلى الله ومنعت القطعان من دفع ديتك.
أيام قليلة وكان أهله في منزلهم صحبة نعجة سمينة وقفة سعف ممتلئة يتفقون على تفاصيل الخطبة والزواج.
كانت تحب أن تسمعه وهو يتكلم لها فقد كان له أسلوبه البديع في التعبير بكل عفوية واطمئنان، لكم كان صادقا واثقا وهو ينظر إليها وعيناه تنفذان إلى أعماقها مباشرة وهو يقول لها:

– الحمد لله ،، أنا أكبر محظوظ في العالم لأنني وجدت نصفي الحقيقي الذي من دونه أكون كمن ينظر بعين واحدة ويسمع بأذن واحدة ويمشي برجل واحدة ويعمل بيد واحدة.

هناك مليون وسيلة للحب ولكن لا توجد وسيلة واحدة للشفاء منه.
لكم ذهلتْ مما فعلَ بها لقد عرَّفها على نفسها وكانت قبل تجهلها كان تقف أمام المرآة لتتأكد مما قاله فيها إنه يصف عينيها بأنهما نهر صاف محاط بغابات نخيل كثيفة تظلله، أما أنفها

فهو تاج ياقوت صاغه الجواهرجي سالم بوخشيم خصيصا لعرش وجهها، وشعرها لا مثيل له إلا تدفق الشلال ساعة الأصيل، وقوامها غصن رمانة باسقة في وادي الشواعر، وأصابعها كبلح سواني الجراول وقت الخريف، ورائحتها كياسمينة في جنانات عيت المقصبي، أما صوتها فأجمل عنده من ترانيم الشيخ عبد السلام الباز العذب الدافئ الحنون وهو ينشد:

يـــــــامن يرانـــــــــي ولا أرآه	****	أنظـــر بعـــين الرضـــا لحـــالي
اغفـــر ذنـــوبي واســـتر عيـــوبي	****	وكـــن لـــي عونـــا عنـــد الســـؤال

قالت له مرة وهو يمشي معها مخترقا زنقة زليتن من سيدي عبد السميع إلى دكان القاضي في زنقة الكوي لشراء بعض الأقمشة للمولود المنتظر:

- لماذا قضيت وقتا طويلا تنظر إليَّ يوم الفرح وأنا مضطربة خائفة وأنت لا تحرك ساكنا؟

ففاجأها باجابته قائلا: كنت أعرف دائما أن الربيع سيحل يوما ويفتح نافذة قلبك لطرقاتي، وإنما كنت أفكر كيف سأذكر لحظة حلوله في حياتي طوال الأيام الباقية من عمري.
وسألته يوما ،،،

- متى رأيتني لأول مرة ؟
- هل تصدقينني لو قلت لك أنني رأيتك قبل أن أراك، إذ كنت منذ وعيت أجمع كل شيء جميل كنت أمر به أراه أو أسمعه أو أشمه في ذاكرتي حتى رأيتك فكفيتني تعب جمع كل تلك المعلومات لأنها ببساطة اجتمعت فيك كلها ،، أنت الصورة المثالية النموذجية لكل شيء أحببته في كل حياتي.

ياآآآآه ،،،، لكم ذهلت من حكمته وقد سمعته مرة ينصح حمزة صديقه الذي اشتكى له عدم توفقه في حياته الزوجية قائلا: كن الرجل المناسب لها لتكون هي لك المرأة المناسبة، ولكم كان لطيفا وهو يداعبها وقد أخبرته بنفاد شوال السكر في المنزل قائلا:

- ينبغي على مستشفى السكر أن يرفع عليك قضية لأن حلاوتك الزائدة هي السبب في ارتفاع نسبة السكر في المدينة وإرهاق د. سالم ساسي من الصباح إلى المساء في علاج المرضى.

وكم كان حنونا وهو يمسك خنصرها ويقبله يهدئ روعها إثر لسعة نحلة أبكتها كثيرا قائلا:

- أنت وحدك المسؤولة لأنك عسل مكرر فلا تغضبي من النحلة لأنها نزلت عليك.

وتتذكر ،،، كيف كانت تتحايل عليه كلما هم بإنشاء مشروع تجاري مثل بعض أصحابه ليزيد من دخله لتمنعه من ذلك فقد كان عاجزا عن بيع لوح خشب لرجل يغرق.
وتتذكر ،،، كيف كان يحب أن يسرح شعرها ويمشطه ويضفره فكانت تتركه يفعل به ما يريد رغم أن أحدث تسريحاته كانت أقدم من وكالة الحصادي بمائة عام على الأقل، أما الطرفة الحقيقية فكانت يوم أحضر لها جوربا اتضح أن جدته اشترته من مرزوقه الدلالة ثم لم يعجبها فأعطته له ليحضره لها مادحا غلظه وسماكته ووقايته لها من البرد لقد اضطرت لإتلافه في الخفاء بعد أن صار يلح عليها لتلبسه كلما خرجت لزيارة أو أداء شأن لها لتتندر بها النساء.

هل يوجد فعلا في الحياة شيء اسمه نهاية سعيدة.
لكم كان يحب سماع صوتها وكلامها وطرفها وتعليقاتها فكانت تحرص على ألا يمر اليوم دون التحدث إليه بملخص عن نهارها بما في ذلك مسلسلات التلفزيون وأحاديث الأهل والجارات وأخر أخبار الشارع.
وفجأة سمعته يقاطعها ويقول لها: ليتني أستطيع أن أمد يدي إلى السماء لأقطف لك منها نجمة تتذكرينني بها على الدوام مهما غبت عنك.
يالها من كلمات لفحتها كتيار برد صقيع مفاجئ قالها لها يوما وهو يمد يده إلى عنقها لكم تشاءمت منه وأرعبتها طويلا ثم عاشتها مرارة حقيقية.

قد يكون القلب ميتا رغم أن دقاته مستمرة.
هذا الصباح يختلف عن كل يوم قضته أمينة في هذا الفرع لقد تغير كل شيء لكأن عصا ساحر لمستها فأعادتها أنثى من جديد وهاهي ترتدي ثيابا أنيقة بعد أن نسيت الاهتمام بهذا

الأمر منذ زمن بعيد ورائحة عطر الياسمين تفوح منها نفاذة وتبدو متفائلة مبتسمة حتى صوتها اليوم ليس حازما آمرا كعادته بل هو رقيق خافت ناعم، والمسجل بجانبها تستمع منه انشادا عذبا:

ياحـــــــادي الركبــــــــان	متـــــى وصــــلت البــــان
أرح هنــــــاك العــــــيس،،،	ياســـيدي وبشــــر الخــــلان

*****

لأجلكــــــــــم ســـــــرنا	شـــــوقا وقـــــد طرنـــــا
وفــــي الهـــوى حرنـــا،،،	ياسـيدي وذو الهـوى حيـران

*****

أرواحنـــــــا راحـــــــت	شـــــوقا وقـــــد ناحـــــت
وباللقـــــا ارتاحـــــت،،،	ياسـيدي وغابـت الأشـجان

*****

لكــــــم ســـــلام الله	يُهــــــدى بـــــــروح الله
مــــــا أقلــــــق الأواه،،،	ياســـيدي تباعــــد الخــــلان

رحم الله الشيخ عبد السلام الباز لكأن إنشاده تغريد العصافير على أغصان شجرة ورد وارفة، وهي لا تتوقف عن النظر إلى نافذة المكتب تنتظر قدومه وسؤال السكرتيرة كل ربع ساعة إن كان قد أتى بعد أن أمرتها بزحلقة أمين المؤتمر وأمين الإقتصاد وتوزيع عضو الرقابة الإدارية المرابط في قاعة الإنتظار كأنه الحاج شميعه في دكانه العتيق.

لم تصدق نفسها عندما دخل عليها فجأة كادت أن تقفز فوق المكتب لتعانقه عناقا أبديا يستمر إلى آخر لحظة من حياتها لقد لاقته مهرولة مسرعة فرحة مرحبة طالبة الشاي والقهوة في وقت واحد، وصافحها وأعطاها ورقة الطلب فأخذتها ،، ولكنها ،، وبلا شعور منها أخذت تصرخ بأعلى صوت وتشد شعرها بقوة وتضرب رأسها بالجدار بلا هوادة ولا رفق، وتصفع خديها بكفيها حتى رسمت عليهما أثار أصابعها من شدة الصفع وتقطع ثيابها وتصيح: ووك ووك صالح ،، يا صالح أنت وين ،، ياصالح.

ودخلت السكرتيرة مهرولة وأوصدت الباب وراءها على عضو الرقابة وبعض الموظفين والموظفات الذين جلبهم الصراخ وضمت الأستاذة في حضنها بعطف شديد مهدئة والتفتت إلى الرجل الذي أخذته الدهشة وداهمه الخوف مما حدث، وقالت له:

لا تخف يا أستاذ إنها مريضة وتتعالج منذ سنين ودائما ما تأخذها نوبات اكتئاب وبكاء طويلة أو مقطعة يبدو أن الحالة عاودتها وإن لم أرها بهذه القوة من قبل ،، أرجوك الله يستر عرضك لا تخبر أحدا بما رأيت حفاظا على سمعتها فهي ابنة ناس.

- حاضر ،، أعدك ،، أنا أسف ،، آآه كثيرون يظنون بيني وبينه قرابة لشبهي الشديد به أنا سالم ،،، صالح الله يرحمه توفي في حادث في طريق عين ماره هو وابنه الوحيد في يوم واحد منذ زمن.

الفـــــهرس

وداعا أيتها الدموع 3
وحيدة في حقول الشوك 8
إنهم يقتلون الآمال 13
دموع لا تجف 20
حبيبتي 24
أهذا أنت أم قناع ترتديه؟ 29
أين أنتم؟ 35
هي 37
دماء الخطيئة 42
خيريه 48
عيد 54
الجدار الناقص 61
الأستاذة أمينة الفرع 68

مؤلفات فضيلة المُحدث المؤرخ مُسند الديار الليبية
علامة ليبيا الكبير الشيخ أحمد القطعاني

منقولة عن صفحة {موسوعة القطعاني} على الفيس سبوك ... الناشر.

https://www.facebook.com/alqatani.encyclopedia

1. مختارات من غناوي البادية (أدب شعبي) / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1972م}.
2. الروائح الشذية / مخطوط {ألفه سنة 1978م}.
3. الكناش / مخطوط {ألفه سنة 1983م}.
4. متون ليبية / مخطوط {ألفه سنة 1984م}.
5. تسهيل المرام لدارس عقيدة العوام (عقيدة أشعرية) / أكثر من 10 طبعات كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1984م}.
6. مرشد المبتدئين في تلخيص متن المرشد المعين (فقه مالكي) / مخطوط {ألفه سنة 1985م}.
7. لا مخبأ لعطر بعد عروس (أدب)/ مخطوط {ألفه سنة 1985م}.
8. مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين / مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1987م}.
9. منتخبات زهر الخمائل من قصائد الشعر الشعبي للأواخر والأوائل / (أدب شعبي) مخطوط {ألفه سنة 1987م}.
10. الخلاصة / مخطوط {ألفه سنة 1989م}.
11. الحجة المؤتاه في الرد على صاحب كتاب إلى التصوف يا عباد الله / أكثر من 22 طبعة كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1990م}.
12. القطب الأنور عبد السلام الأسمر / 8 طبعات كما نشر على شبكة النت {ألفه سنة 1992م}.
13. الشيخ الكامل محمد بن عيسى / أكثر من 8 طبعات كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1992م}.
14. تقديم وتحقيق وتصحيح وضبط كتاب {مختصر البحر الكبير} للشيخ عبد الرحمن المكي ت998هـ،1590م / مخطوط {ألفه سنة 1993م}.

15. الآرس في نسب الفواتير من آل بوفارس (أنساب) / طبعتان كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1993م}.
16. الإهابة بمن دفن في البلاد الليبية من الصحابة (تاريخ) / طبعتان كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1994م}.
17. الداني المدني محمد حسن حمزة ظافر المدني / مخطوط {ألفه سنة 1994م}.
18. الوارث النبوي أحمد بن مصطفى العلوي / مخطوط {ألفه سنة 1994م}.
19. تقديم وتحقيق وإسناد وتصحيح وضبط كتاب {فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم} للشيخ عبد السلام بن عثمان ت1139هـ،1727م / مخطوط {ألفه سنة 1994م}.
20. تحفة الحبيب الزائر (تراجم) / مخطوط {ألفه سنة 1994م}.
21. الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث / 3 طبعات كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1995م}.
22. قاف العرب (في علم القراءات)/ نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1995م}.
23. شيخ الشهداء الصوفي عمر المختار (تاريخ)/ مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1995م}.
24. حراس العقيدة (تراجم)/ طبعتان كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1996م}.
25. برقمة عند الوكن (تربية وتعليم)/ نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1997م}.
26. دليل الخيرات محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1997م}.
27. مسرحية فتح مكة (مسرح)/ مطبوع {ألفه سنة 1997م} وهي مسرحية ذات رؤيا تتحدث عن فتح مكة لقلوب الناس وعن أساليب الدعوة الإسلامية الخالدة وآراء كبار مفكري العالم وأدبائه وأعلامه فيها وتقبل عقول الناس وانشراح قلوبهم لها قدم العرض الأول لها بمناسبة ذكرى فتح مكة التي كانت على الأبواب على مسرح الفنان محمد عبد الهادي بدرنه في 16/ رمضان/1418 الموافق 1998/1/15م أداء طلاب وطالبات منارة الصحابة للعلوم الشرعية وإخراج الفنان منصور سرقيوه.

ثم قدم العرض الثاني لها مساء يوم الخميس 2008/10/09 م في اليوم الوطني للمسرح في ليبيا وذلك بمناسبة مرور 100 عام على تأسيس المسرح الليبي الحديث أدتها على

مسرح الكشاف بطرابلس فرقة غفران للأعمال الفنية والمسرحية بالتعاون في عرضها مع العديد من الفرق الفنية الليبية المماثلة وإخراج الفنان صالح بوالسنون.

28. مجالس الفقراء/ مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1998م}.
29. تقديم وتحقيق وإسناد وتصحيح وضبط ديوان الشيخ أحمد البهلول ت1113هـ،1701م (مدايح نبوية) / أكثر من 20 طبعة كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1999م}.
30. على مشارف تونس (أدب رحلات) / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1999م}.
31. من مسجد الحي إلى المسجد الأقصى (دراسات إسلامية)/ نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1999م}.
32. معالم وأعلام (أدب رحلات) / طبعتان كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 1999م}.
33. موسوعة القطعاني الإسلام والمسلمون في ليبيا / طبعتان {أتم تأليفه سنة 2000م}.

استغرق تأليفها 18 عاما تؤرخ لأكثر من 1400 عام أي منذ الفتح الإسلامي لليبيا سنة 21هـ وتوثق تاريخ ليبيا الإسلامية بأدق تفاصيله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وسواها ، والصحابة الكرام وآل البيت عليهم السلام الذين دخلوها والذين دفنوا بها منهم ، وأهم الأحداث الإسلامية التي حدثت بها ، وحوت تراجم 700 شخصية من الأعلام ذكورا وإناثا غالبها يؤرخ له لأول مرة ، والرجال المميزين من غير الليبيين الذين دخلوا ليبيا وأثروا بها وعام دخولهم إليها وأهم أعمالهم فيها.

وأكثر من 100 عمود نسب ونحو 600 سند متصل وسند 40 كتاب حديث شريف وأرخت لكل الطرق الصوفية التي ظهرت بليبيا مع ذكر مؤسسيها ومشايخها ووقت ظهورها في البلاد وزواياها وأسانيدها الصوفية ومصطلحاتها وتعريفاتها وبحوث علمية حولها ووثقت وضبطت عدد قبائل ليبيا والكثير من أسرها بادية وحضرا وتنقلاتها وأصول الأمازيغ وهجرتهم إلى شمال أفريقيا ووثقت بمنتهى الدقة لـ 16 دولة هو مجموع الأنظمة التي شكلت دولا أو أسرا حكمت ليبيا في عهدها الإسلامي مع التعريف بمؤسسي هذه الدول والأسر وأهم رجالها ومذهبها وما واجهها من أحداث ، والاستعمارات الحروب الأهلية التي نشبت بليبيا.

وأهم مساجد ليبيا وزواياها ومصاحفها ومدارسها التاريخية ومعاقلها ومكتباتها ومسرحها وصحافتها ومؤسساتها العلمية ، ومؤلفات علمائها المطبوعة والمخطوطة والمفقودة ودخول أندر نسخة مخطوطة من صحيح البخاري إلى طرابلس والمذاهب الدينية والنحل التي ظهرت بليبيا والفرق الإسلامية من سنة وشيعة وأباضية والمهديين المنتظرين

المزيفين والجماعات الإسلامية الحديثة التي دخلتها أو وجدت بها وتاريخ ظهورها بليبيا ومناقشة أفكارها وعقائدها سياسيا وإسلاميا وثقافيا..

34. مجموع رسائل الشيخ أحمد القطعاني المُسمى (سلسلة رسائل أمداد العناية) المجموعة الأولى بعنوان : القطب نجم الدين كبرى رسالتان (أدب رسائل) طبع سنة 2001م كما نُشر على شبكة النت.
35. مجموع رسائل الشيخ أحمد القطعاني المُسمى (سلسلة رسائل أمداد العناية) المجموعة الثانية بعنوان : المبين الشاهد 29 رسالة (أدب رسائل) طبع سنة 2001م كما نُشر على شبكة النت.
36. مجموع رسائل الشيخ أحمد القطعاني المُسمى (سلسلة رسائل أمداد العناية) المجموعة الثالثة بعنوان : سياحات القلوب 31 رسالة (أدب رسائل) طبع سنة 2001م كما نُشر على شبكة النت.
37. تقديم وتحقيق وإسناد وتصحيح وضبط منظومة {أهل بدر} للشيخ عبد الله العياشي ت1073هـ،1663م (دراسات إسلامية) مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2001م}.
38. علاج ظاهرة التطرف في ليبيا (دراسات إسلامية)/ مخطوط {ألفه سنة 2003م}.
39. منهجية التصنيف السلوكي في التأليف الفقهي المالكي / مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2003م}.
40. مسرحية سجين بلا قضبان (مسرح الطفل) / مخطوط {ألفها سنة 2006م}.
41. كأنك تعيش أبدا (الطب البديل)/ مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2006م}.
42. خصائص السيرة النبوية الشريفة (دراسات إسلامية)/ مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة2007م}.
43. المنهج العملي للتحديث {حديث أم زرع نموذجا} (حديث شريف) / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2007م}.
44. الكرامة الإسلامية (دراسات إسلامية) / مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2007م}.
45. أوبة المهاجر وتوبة الهاجر(ثبت حديث شريف)/ مخطوط {ألفه سنة 2010م}.
46. سري للغاية / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2010م}.
47. أكذوبة الدعوة للإسلام (دراسات إسلامية)/ مخطوط {ألفه سنة 2010م}.

48. وداعا أيتها الدموع(أدب) / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2010م}.
49. موسوعة الأشراف (رؤية جديدة للسيرة النبوية الشريفة) / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2010م}.
50. الحب القذر (فقه مستنير) / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2010م}.
51. إسلام للبيع (دراسات إسلامية)/ نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2010م}.
52. الإسلام هو الحل (دراسات إسلامية)/ نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2010م}.
53. رحلات أحمد القطعاني (أدب رحلات) / مخطوط {ألفه سنة 2010م}.
54. لماذا أبكيتم عصام ؟ (أدب) / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2010م}.
55. سالم كريِّم القطعاني وصفحات في تاريخ الوطن (تاريخ)/ نُشر على شبكة النت {أتم تأليفه سنة 2016م}.
56. المسرد الطيع في نسب قبيلة العواكلة آل اسميع (أنساب) / مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2011م}.
57. شتاء طرابلس الدامي (تاريخ)/ {ألفه سنة 2011م}.
58. كرائم المسلسلات (ثبت حديث شريف)/ مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2012م}.
59. تقديم وتحقيق وإسناد وتصحيح وضبط مولد البرزنجي ت 1177هـ،1763م (سيرة نبوية شريفة)/ أكثر من 3 طبعات كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2013م}.
60. إجازة شيخ الحديث أحمد القطعاني في الأربعين القادرية للشيخ عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلاني (حديث شريف)/ مطبوع كما نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2014م}.
61. تقديم وتحقيق وإسناد وتصحيح وضبط منظومة {الجوهرة المنثورة} للشيخ عبد السلام الأسمر ت981هـ،1574م (دراسات إسلامية) مخطوط {ألفه سنة 2015م}.
62. من أبطال العرب نجيب بك الحوراني (تاريخ)/ نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2015م}.
63. أزجال الشيخ عبد الرحمن المجذوب في ليبيا / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2015م}
64. تونس الزيتونة والزيتون (أدب رحلات) / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2016م}.
65. تقديم وتحقيق وإسناد وتصحيح وضبط {رائية الشريشي} ت641هـ،1243م / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2016م}.

66. ثلاثيات البخاري في طرابلس وبنغازي وأوباري (حديث شريف) / مطبوع كما نشر على شبكة النت {ألفه سنة 2016م}.
67. غنائم المسلسلات (ثبت حديث شريف)/ مخطوط {ألفه سنة 2016م}.
68. تعرُّفُ المُريد على رجال حزب التوحيد (المشهور باسم حزب سبحان الدايم للإمام الجزولي)/ مخطوط {ألفه سنة 2016م}.
69. حزب التوحيد {المشهور باسم حزب سبحان الدايم} للإمام محمد بن سليمان الجزولي برواية وتعليقات وضبط وتشكيل الشيخ أحمد القطعاني نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2017م}.
70. نُوارُ العَشيّةِ أسانِيدِنا في حديثِ الرحمة المُسَلسلِ بالأوليّةِ (ثبت حديث شريف)/ نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2018م}.
71. فرحةُ المُحبين بألقابِ أولياءِ اللهِ الصالحين / نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2018م}.
72. الإجازاتُ العشر(ثبت حديث شريف)/ نُشر على شبكة النت {ألفه سنة 2018م}.
73. العرجون (ديوان شعر) / مخطوط.

<u>إضافة إلى :</u>

مسرحيات وأوبريتات موسيقية منها :

- أوبريت موسيقي بعنوان (الأسوة الحسنة) عرض في يوم السبت 2007/2/3م على مسرح مجمع ذات العماد بطرابلس أداء: فرقة غفران وذلك في أمسية النور بمناسبة دخول مجلة الأسوة الحسنة عامها العاشر .
- أوبريت موسيقي بعنوان (اليقظة) عرض في يوم الجمعة 2008/08/08م بطرابلس أداء: فرقة غفران .
- حولت بعض كتاباته إلى أعمال تلفزيونية وعروض مسرحية.